

الفصل الثامن

تعظيم القبور .. وتقديس المقبورين

● السنة .. والبدعة :

السنة لغة : الوجه ، أو دائرته ، أو الصورة ، أو الجبهة والجبينان ، أو المسيرة والطبيعة^(١) .. وكلها معان متقاربة تشترك في الدلالة على صورة معينة حسية أو معنوية ..

ويقول الأزهرى : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة .. ويقول الشيخ رشيد رضا : قيل انها من قولهم سن الماء اذا والى صبه .. فشجعت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب ، فانه لتوالي اجرائه على شىء واحد يكون كالشئ الواحد^(٢) .

ويقال : السنة : الطريقة والسيرة .. حميدة كانت أو ذميمة .. وسواء قصرنا السنة من ناحية اللغة على السيرة المستقيمة ، أو السيرة مطلقا مستقيمة أو غير مستقيمة .. فانها تتقيد بما تضاف اليه ..

يقول تعالى : « سنة من قد أرسلنا قبلك ، ولا نجد لمنتنا تحويلا »^(٣) .

ويقول عليه السلام : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

فالسنة هي الأصل : سنة الطريق ، وهو طريق سنه أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم .. وهي لا تنفصل عن سنها .. بل ترتبط به باعتباره مصدرها ومنشأ وجودها ..

(١) القاموس المحيط ، ولسان العرب .

(٢) تفسير المنار ج ٤ ص ١٤٠ (٣) الاسراء : ٧٧

واختلف معنى السنة في الشرع باختلاف المباحث التي تناولتها ،
وقامت بتحديدتها ••

فعلماء الأصول •• يطلقون السنة على ما صدر من النبي ﷺ من
قول أو فعل أو تقرير ••

وبعضهم يدخل فيها ما علم به ﷺ أو أشار اليه ، وان لم يتواتر
عند الجمهور ويخسون ذلك بغير القرآن الكريم ••
وقد يدخل فيها بعضهم سنة الخلفاء الراشدين ، ويدخل فيها بعضهم
سنة الصحابة ••

وعلماء الحديث •• يعرفونها بأنها ما أضيف الى النبي ﷺ من
قول أو فعل أو تقرير ، أو صفة خلقية أو خلقية (٤) •• وما يتصل بالرسالة
من أحواله الشريفة قبل البعثة •• ونحو ذلك ••

وعلماء الفقه •• يختلف تعريفهم للسنة لاختلاف أنظارهم وتفاوت
أفهامهم ••

فمنها •• تعريفهم لها بأنها : « ما في فعله ثواب ، وفي تركه
عقاب لا عقاب » ••
وجعلها بعضهم من قبيل المندوب ، والمندوب ما يحمده فاعله
ولا يذمه تاركه ••

وهي عند الحنفية •• الطريقة المسلوكة في الدين ، يطالب باقامتها
بلا افتراض ووجوب •• وقسموها الى سنن زوائد كسيرة النبي ﷺ في
اللباس والقيام والجلوس ، وسنن هدى كالأذان والأقامة ونحوهما ••
وأوجبوا على ترك الثانية الاساءة والكرهية دون الأولى ••

وتطلق السنة على ما يقابل البدعة •• استنادا الى المقابلة بينهما
في الأحاديث •• وعلى ذلك تشمل السنة كل ما تشتمل عليه الشريعة
من قرآن وغيره ، مما ورد عن الرسول ﷺ ، وقد تشتمل ما استند الى
الشريعة عن طريق أقرته كاجتهاد صحيح ••

(٤) بفتح الخاء في الأولى وضمها في الثانية .

يقول ابن حزم : « السنة .. هي الشريعة نفسها ، وأقسامها في الشريعة فرض أو نذوب أو اباحة أو كراهة أو تحريم .. كل ذلك قد سنه الرسول ﷺ عن الله عز وجل » (٥)

● والبذعة لغة : اسم هيئة من الابتداء كالرفعة من الارتفاع ، وهي : كل شيء أحدث على غير مثال سابق .. سواء أكان محمودا أو مذموما ..

والبذع - بكسر الباء : الأمر الذي يكون أولا .. ومنه قوله تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل » (٦) : أى لست أول من جاء بالوحي من عند الله تعالى وحمل الرسالة الى الناس ، بل قد أرسل قبلى مبشرون ومنذرون ، فليست مبتدعا - اسم مفعول - لم يتقدمنى رسول ..

ويجوز أن يكون بمعنى مبتدع - اسم فاعل - فيكون معنى الآية : ما كنت مبتدعا فيما أقوله وأدعو اليه من الرسالة ، وليست مخترعا لها .. بل هي من عند الله ..

والبذع بكسر الباء : يستعمل فى الخير والشر .. ورجل بذع : أى غمر لم يجرب الأمور ..

وخلان بذع من الأمر : أى هو أول من فعله لم يسبقه اليه أحد .. فبذع هنا بمعنى مبتدع .. ورجل بذع ، وامرأة بذعة : اذا كانا غاية فى كل شيء علما أو شرفا أو شجاعة .. أو غير ذلك ..

ورجل أبداع ، ونساء بذع وأبداع ..

وشىء بذع : أى مبتدع وجمعه أبداع وبذع .

والبذيع : من أسمائه تعالى ، لأبداعه الأشياء واحداثه اياها .. فيكون بمعنى مبدع ، أو من بذع الخلق أى بدأه ..

(٥) انظر البذعة .. تحديدها وموقف السلام منها ، للدكتور عزت على عيد عطية ، نشر دار الكتب الحديثة ص ١١٧ - ١٢١ بتصرف .

(٦) الاحقاف : ٩

أما البدعة فى اصطلاح الشرع .. فقد اختلفت أنظار العلماء فى تحديد معناها .. وتنوعت تعبيراتهم عنها .. فمنهم من توسع فى هذا التحديد فانتسح عنده مدلول البدعة وما يندرج تحت هذا المفهوم .. ويمثل هذا الاتجاه بعض العلماء المشهورين ..

فالامام الشافعى - رحمه الله - يقسم البدعة الى حسنة وسيئة ، أو محمودة ومذمومة .. وهى على هذا تشمل كل حادث بعد عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين .. والمحدثات من الأمور عنده ضربان : أحدهما : ما أحدث يخالف كتابا أو سنة أو اجماعا أو أنرا ، فهذه البدعة الضلالة ، والثانى : ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا ، فهى محدثة غير مذمومة ..

ويقول ابن حزم - رحمه الله - : « البدعة فى الدين : كل ما لم يأت فى القرآن ، ولا عن رسول الله ﷺ ، الا أن منها ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد اليه من الخير .. ومنها ما يؤجر عليه صاحبه ويكون حسنا ، وهو ما كان أصله الاباحة .. كما روى عن عمر رضى الله عنه : « نعمت البدعة هذه » وهو ما كان فعل خير جاء النص بعموم استحبابه وان لم يقرره عمله فى النص .. ومنها : ما يكون مذموما ولا يعذر صاحبه ، وهو ما قامت الحجة على فسادة فتماذى القائل به » .. ويقول أبو حامد الغزالى : « وما يقال انه أبداع بعد رسول الله ﷺ [وكان يتحدث عن الأكل على السفرة] فليس كل ما أبداع منها عنه ، بل المنهى عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته .. بل الابداع قد يجب فى بعض الأحوال اذا تغيرت الأسباب » ..

ويقول ابن الأثير فى النهاية : « البدعة بدعتان .. بدعة هدى وبدعة ضلال .. فما كان فى خلاف ما أمر به الله ورسوله ﷺ ، فهو فى حيز الذم والانكار .. وما كان واقعا تحت عموم ما ندب الله اليه وحض عليه أو رسوله فهو فى حيز المدح ، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من السخاء والجود وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ، ولا يجوز أن يكون ذلك فى خلاف ما ورد فى الشرع به ..

لأن النبي ﷺ قد جعل له في ذلك ثوابا .. فقال : « من سن سنة حسنة كان له أجره وأجر من عمل بها » .. وقال في ضده : « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها » .. وذلك اذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ ..

ومثل البدعة الحسنة يقول عمر في صلاة التراويح « نعمت البدعة » . ثم قال : وهي على الحقيقة سنة لقوله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين » ، وقوله : « اتقوا باللاذين من بعدي : أبو بكر وعمر » ..

وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر : « كل محدثة بدعة » على ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة » ..

ويقول الدهلوي في شرح المشكاة : « اعلم أن كل ما ظهر بعد رسول الله ﷺ بدعة ، وكل ما وافق أصول سنته وقواعدها أو قيس عليها فهو بدعة حسنة ، وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة » ..

والى هذا الاتجاه مال الشيخ عز الدين بن عبد السلام والنووي وأبو شامة .. فالبدعة فيما يرى هؤلاء ومن وافقهم : « فعل ما لم يعهد في عهد رسول الله ﷺ » ..

ومن العلماء .. من ضيق مدلول البدعة ، وما يندرج تحته من الصور والأحكام .. وينقسم هذا الاتجاه الى قسمين ..

قسم لا تنقيد فيه البدعة بشيء سوى مخالفة السنة .. وقسم تنقيد فيه البدعة فضلا عن ذلك بنسبتها الى الدين وجعلها من الشرع ..

ويمثل القسم الأول عدد من العلماء تنوعت تعبيراتهم على مدلول واحد .. يقول ابن رجب الحنبلي : « المراد بالبدعة : ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه ، أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا ، وان كان بدعة لغة » ..

ويقول ابن حجر العسقلاني : « والبدعة : أصلها ما أحدث على غير مثال سابق ، وتطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة » ..

كما يقول فى موضع آخر : « والمحدثات جمع محدثة — والمراد بها — أى فى الحديث : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »
•• ما أحدث وليس له أصل فى الشرع — ويسمى فى عرف الشرع بدعة ،
وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة » ••

ويقول ابن حجر الهيتمى : « وهى — أى البدعة — لغة : ما كان
مخترعاً ، وشرعاً : ما أحدث على خلاف أمر الشرع ودليله الخاص
والعام » ••

ويقول الزركشى : « البدعة فى الشرع موضوعة للحادث
المذموم » ••

فالإتجاه العام فى هذا القسم يتمثل فى أن البدعة شرعاً : كل
حادث مذموم ، وليست كل حادث على الإطلاق ، أو كل حادث بشرط
نسبته الى الدين ••

أما القسم الثانى الذى تنقيد فيه البدعة بنسبتها الى الدين وجعلها
من الشرع •• فيتمثل فى رأى الشاطبى فى « الاعتصام » ومن وافقه
على ذلك من العلماء ••

وأساس هذا الإتجاه هو تعريف البدعة بالمحدث المخالف للسنة
الذى جعل ديناً قويمًا وصراطاً مستقيماً •• سواء اقتصرنا فى تعريف
البدعة على ما كان كذلك من العبادات فقط ، أو جعلناه شاملاً لما كان
كذلك فى العبادات والعبادات معا ••

ويعرف « الشاطبى » البدعة على هذا الأساس بتعريفين :
الأول : البدعة •• طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشرعية ،
يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله تعالى ••

والثانى : أنها طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشرعية ، يقصد
بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية ••
ويشرح الشاطبى تعريفه بما يلقى الأضواء الكاشفة على مراده
منهما •• فيقول ما خلاصته :

« الطريقة » : ما رسم للساوك عليها •• « فى الدين » قيد لاجراج

الطريقة فى الدنيا ؛ كاحداث الصنائع والبلدان التى لا عهد بها فيما تقدم
•• « مخترعة » : لا أصل لها فى الشريعة ولا تعلق لها بها ، بخلاف
ما له تعلق بها مما حدث بعد العصر الأول ، كعلم النحو والتصريف
ومفردات اللغة وأصول الدين والفقه •• « تضاهى الشرعية » :
أى تشبهها من غير أن تكون كذلك بل هى مضادة لها ، من جهة وضع
الحدود كالاقتصار فى المأكل والملبس على صنف دون صنف بلا علة ،
أو من جهة التزام الكيفيات والهيئات المعينة كالذكر بهيئة الاجتماع على
صوت واحد ، واتخاذ يوم ولادة النبى ﷺ عيداً ، أو التزام عبادات
معينة فى أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين فى الشريعة كالقترام
صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلة وسواء فى ذلك ألبس صاحبها
على الناس بما ابتدعه ، أو التبتست البدعة عليه بالسنة ، ما دام مصرا
عليها مع معرفته ببدعيتها أو اخباره بهذا الابتداع •• والمبتدع بذلك
فى شىء مما سبق ذكره من الأمثلة ، مشابه للجاهليين فى تغييرهم ملة
ابراهيم عليه السلام حيث قالوا فى أصل الاشرار : « ما نعبدهم الا
ليقربونا الى الله زلفى » (٧) •• وتأول الحمس (٨) ترك الوقوف بعرفة
بقولهم : لا نخرج من الحرم ، اعتداداً بحرمته •• وتأول من طاف منهم
بالبيت عريانا بقوله : لا نطوف بثياب عصينا الله فيها •• ونحو ذلك ••

ومعنى قوله فى التعريف الأول : « يقصد بالسلوك عليها المبالغة
فى التعبد لله تعالى » : قيد لاجراج العادات من البدع ، وبيان أن
ما ابتدع من الأمور الزائدة على المشروع ، والمنسوبة الى الشرع
مقصود بها المبالغة فى التعبد ، أو تجديد النشاط الى العبادة ••

أما على التعريف الثانى ، فمعنى قوله : « يقصد بها ما يقصد
بالطريقة الشرعية » : أن المبتدع يخترع ما يخترع لاصلاح الدين
أو الدنيا على حد زعمه ، كمن يدخل المناخل فى قسم البدع ، والبناءات

(٧) الزمر : ٣

(٨) المراد قريش وما ولدت وحافاؤهم ، سموا بذلك لتحمسهم :

أى تشدهم فى الأمور .

المشيدة ونحو ذلك ، مما يتعلق بالمخترعات المنسوبة الى الدين من العادات ، أى ادعاء اباحتها كغيرها من الأمور المباحة من الدين » (٩) .

ويستند الشاطبى ومن وافقه .. الى أن الأدلة الكثيرة التى وردت فى ذم البدعة والمبتدعة ومن تابعهم ، ليس فيها استثناء البتة ، وليس فيها ما يقتضى أن من البدع ما ليس سيئاً .. وقد ورد فى هذه الأدلة ما يقتضى تخصيص البدعة عن غيرها من المعاصى ..

فالبدعة لا يقبل معها عمل .. عن حذيفة رضى الله عنه قال : « لا يقبل الله اصحاب بدعة صوما ولا صلاة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا .. يخرج من الاسلام كما تخرج الشعرة من العجين » (١٠) .

وصاحب البدعة تنزع منه العصمة ويوكل الى نفسه لأنه يترك ما منحه الله من الرسالة الاسلامية الواضحة الى هوى نفسه الذى لا عصمة فيه ..

وأن صاحب البدعة .. ملعون على لسان الشريعة ، فقد لعن رسول الله ﷺ تارك السنة ، وصاحب البدعة شارك بهذا اللعن من كفر بعد ايمانه ، وأعرض عن الرسول ﷺ مع معرفته بصدقه .

وأن صاحب البدعة .. يزداد من الله بعداً مهما بالغ فى الطاعة والعبادة ..

وأن البدعة .. مظنة العداوة والبغضاء بين أهل الاسلام لأنها سبب التفرق وأساس الاختلاف .

وأنها مانعة من شفاعة نبينا محمد ﷺ كما يدل على ذلك حديث طرد من أحدث فى الدين عن الحوض يوم القيامة ..

وأن على مبتدعها اثم من عمل بها الى يوم القيامة ..

(٩) انظر : البدعة ، تحديدها وموقف الاسلام منها ، مرجع سابق ،

ص ١٩٢ — ٢٠٢ بتصرف .

(١٠) رواه ابن ماجه .

وأن المبتدع يلقي عليه الذل في الدنيا ويلحقه الغضب من الله تعالى •• فقد لعن اليهود بسبب ابتداعهم في دينهم ••

وأن صاحب البدعة يخشى عليه من سوء الخاتمة لاصراره على المعصية وهو يظن أنه على طاعة ••

وأن وجهه يسود في الآخرة •• فقد تأول مالك — رضى الله عنه — قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » (١١) في أهل الأهواء ، ونقل هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما ••

وأنه يجب التبرؤ من صاحب البدعة في الدنيا •• كما جاء عن ابن عمر في التذرية ، وعن أبي قلابة ويحيى بن أبي كثير ونحوهم ••

وأنه يخشى على صاحب البدعة الفتنة ••

وأن البدع ضلالة ، والمبتدع ضال ومضل •• بخلاف سائر المعاصي فإنها لم توصف في الغالب بوصف الضلالة إلا أن تكون بدعة أو شعبة البدعة •• فلا يسمى الخطأ في الاجتهاد ضلالة لأنه معفو عنه ، كما لا يطلق هذا اللفظ على المتعمد لمسائر المعاصي ، وذلك لحكمة قصد إليها : لأن الضلالة ضد الهدى ، والضلالة تطلق على الخروج عن الطريق محسوسا أو معنويا •• فالمبتدع خارج عن السنة وهو يتوهم أنه سائر في الطريق المستقيم •• وهو ضال من حيث يظن أنه على الجادة •• والدليل على ذلك : أن كل مبتدع ينتسب إلى الملة يستشهد على بدعته بدليل شرعى ينزله على ما وافق عقله وشهوته ، ولا يتيسر له ذلك إلا في الأدلة المتشابهة ••

ثم يقول الشاطبي : « والأمثلة كثيرة ، جميعها يشهد بأن الضلال في غالب الأمر إنما يستعمل في موضع يزل صاحبه لشبهة تعرض له ، أو تقليد من عرضت له التشبهة ، فيتخذ ذلك شرعا ودينا يدين به مع وجود واضحة الطريق وجادة الصواب » ••

ويؤكد الشاطبي موقفه من تخصيص البدعة ، فيذكر أنه إذا وقع الذنب موضع الاقتداء تد يسمى استئنانا فيعامل صاحبه معاملة من سنه ، كما جاء في حديث : « من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها » • وحديث ابن آدم وأنه أول من سن القتل • • حيث سمي القتل سنة بالنسبة لمن يقتدى به فيه ، لكنه لا يسمى بدعة ، لأنه لم يوضع على أن يكون تشريعا ، ولا يسمى ضلالا لأنه ليس في طريق المشروع أو في مضاهاته له « (١٢) •

بعد هذا المدخل الضروري في تعريف السنة والبدعة • • نتحدث بمشيئة الله عن وجوب طاعة الرسول ﷺ • • فنقول وبالله التوفيق :

● طاعة الرسول • • من طاعة الله :

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله • • وأمرنا تعالى بطاعته والتسليم له في كل ما يوجهه إلينا • • بل انه تعالى • • ينبهنا الى ما يجب نحوه ﷺ من الطاعة والاتباع ، ومن التبجيل والتوقير والاحترام • • ويكلفنا بالتسليم للرسول ﷺ دون اعتراض وعدم الخروج عن توجيهاته مهما كانت الأحوال • •

يقول تعالى : « • • • ورحمتي وسعت كل شيء ، فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون • الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » (١٣) •

الله تعالى — في هذه الآيات — يشترط لحصول رضاه وتفضله بالثواب والرحمة في الدنيا والآخرة : اتباع الرسول ﷺ والرضا والتسليم بكل ما أمر به أو نهى عنه • •

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢١٠ — ٢١٤ بتصرف •

(١٣) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧

كما يربط تعالى بين طاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ ، ويجعلهما شيئاً واحداً •• فطاعة الرسول ﷺ مندرجة في الأمر بطاعة الله تعالى •• ولا تتحقق طاعة الله الا بطاعة الرسول لأنها جزء منها •• يقول جل شأنه : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » (١٤) •

بل ويعلق تعالى رحمته بعباده على طاعتهم لله وللرسول فيقول : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحموا » (١٥) •
ويبشر الطائعين له ولرسوله بالفوز والفلاح •• فيقول جل وعلا : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » (١٦) •

ويتفق المسلمون على أن طاعته تعالى دون طاعة رسوله ، أو طاعة الرسول دون طاعة الله ، أمر غير مقبول ، بل يجب اتباعه ﷺ فيما أمر به ، وعدم جواز الخروج على ما رسمه من معالم الطريق الى الله تعالى •• يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » (١٧) •

يشير تعالى بذلك •• الى أن طاعة الرسول ﷺ هدف ينبغي قصده بذاته — بجانب طاعة الله سبحانه وتعالى — وأن طاعته ﷺ لا تقل في أهميتها عن طاعة الله ••

بل ان اتباع الرسول ﷺ هي السبيل الى نيل محبة الله ، والوسيلة الوحيدة لتحقيق رضاه وحصول غفرانه : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » (١٨) •

ويحذرنا تعالى من الاساءة الى الرسول ﷺ في حياته ، أو الى

(١٥) آل عمران : ١٣٢

(١٧) النساء : ٥٩

(١٤) آل عمران : ٢٢

(١٦) الأحزاب : ٧١

(١٨) آل عمران : ٣١

سنته بعد وفاته بتقديم غيرها عليها أو بمخالفتها والخروج عليها بقوله :
« يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، وانتقوا الله ،
ان الله سميع عليم • يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت
النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم
لا تشعرون » (١٩) •

كما يتوعد — تعالى — المخالفين للرسول ﷺ بأوخم العواقب في
الدنيا والآخرة •• فيقول : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن
تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » (٢٠) •
ويؤكد — سبحانه — أن الخروج — ولو مرة واحدة — عن
اتباع الرسول ﷺ والتسليم لأمره ، هو الضلال الواضح والانحراف
الذى لا شك فيه •• فيقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله
ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله
فقد ضل ضلالا مبينا » (٢١) •

من هذه الآيات وغيرها •• يتبين لنا أن الأمر باتباع الرسول ﷺ ،
والتقديده من مخالفته في شيء مما جاء به — ركن أساسي من أركان
الايمان ، وتنفيذ للشطر الثاني من شهادة التوحيد « وأشهد أن محمدا
رسول الله » •• فما دمنا نشهد أنه رسول الله حقا ، وأنه لا ينطق
عن الهوى ، فعلينا — اذن — أن نمثل لأوامره وأن ننتهي بنواهيه ••
فاتباعه ﷺ •• هو السبيل الى دخول الجنة •• والابتعاد عن
هذا الاتباع هو السبيل الى دخول النار •• يقول الرسول ﷺ في
الحديث الذى يرويه أبو سعيد الخدرى : « والذى نفسى بيده لتدخلن
الجنة كلكم الا من أبى وشرد عن الله كشراد البعير » •• قالوا :
يارسول الله ، ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ •• قال : « من أطاعنى دخل
الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » (٢٢) ••

(١٩) الحجرات : ١ ، ٢ (٢٠) النور : ٦٣

(٢١) الأحزاب : ٣٦

(٢٢) رواد الطبرانى • وابن حبان ، وذكره الهيثمى ••

ويعلق ابن حبان على هذا الحديث بقوله : طاعة رسول الله ﷺ هي الانقياد لسنته مع رفض قول من قال شيئاً في دين الله عز وجل بخلاف سنته ، دون الاحتياط في دفع السنن بالتأويلات المضمحلة والمخترعات الداخضة ..

ويضرب الرسول ﷺ المثل لموقف الناس من سنته بصورة محسوسة لأهمية السنة وعاقبة الخروج عليها .. فيقول : « انما مثلى ومثل الناس ، كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل يزعهن ويغلبهن فيفتحن فيها .. فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يفتحمون فيها » (٢٣) ..

يقول النووي : مقصود الحديث أنه ﷺ شبه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم ، بتساقط الفراش في النار لضعف تمييزه ، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله ..

ويقول ﷺ : « دعوني ما تركتكم ، فانما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، واذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم » (٢٤) ..

فالمسلم ملتزم باتباع السنة على قدر الوسع في جانب الأمر وبلا أي تصور في جانب النهي ، ولا يجوز له التوقف عن اتباع السنة مهما كانت الأحوال ..

وكما لا يجوز للمسلم مخالفة أوامر النبي ﷺ أو عصيانه .. فإنه لا يجوز له التتزه عن الشيء الذي يرخص فيه ﷺ .. لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : صنع النبي ﷺ شيئاً ترخص فيه ، وتتزه عنه قوم .. فحمد الله ثم قال : « ما بال أقوام يفتزهون عن

(٢٣) رواه البخاري ومسلم ..

(٢٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي ، واحمد ، وابن حبان ،

وابن ماجه ..

الشيء أصنعه ؟ .. فوالله انى أعلمهم بالله وأشدهم له خشية « (٢٥) .
وزاد مسلم فى روايته : « فغضب حتى بان الغضب فى وجهه
ثم قال « » . .

فكل تصرفاته ﷺ وأعماله .. قائمة على أساس من العلم الصادق
والعبادة الصحيحة .. فلا يمكن أن يكون من الأعمال ما يزيد فى الثواب
عليها ، أو يوصل الى الله تعالى أسرع منها ..

يقول الداودى : ان المنتزه عما رخص فيه النبى ﷺ من أعظم
الذنوب .. لأنه — أى المنتزه عن ذلك — يرى نفسه أتقى لله من رسوله
وهذا الحاد ..

ويعلق على هذا ابن حجر فيقول : « لا شك فى الحاد من اعتقد
ذلك .. ولكن الذى اعتل به من أشير اليهم فى الحديث أنه قد غفر له
ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيحتاج من لم يغفر له الى الأخذ بالعزيمة
والشدة لينجو » ..

ويشير ابن حجر .. الى ما اعتل به النفر الثلاثة الذين جاءوا الى
بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها كأنهم
تقالوها ، فقالوا : أين نحن من النبى ﷺ ، قد غفر الله له ما تقدم
من ذنبه وما تأخر .. فنذر أحدهم أن يصلى الليل أبدا ، ونذر آخر أن
يصوم الدهر ولا يفطر ، ونذر الثالث باعترال النساء فلا يتزوج أبدا ..
فقال لهم رسول الله ﷺ : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله
انى لأخشاكم الله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ،
وأتزوج النساء .. فمن رغب عن سنتى فليس منى » (٢٦) .. فزجرهم
ﷺ عن مثل هذا التفكير ، والتعلل بأنه ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه
وما تأخر ، لذا فانهم يأخذون أنفسهم بالعزيمة والشدة طلبا للنجاة ..
ولهذا نراه — ﷺ — يمنع مثل هذه المقارنة ، ويدعو الى التسليم
والاتباع بلا خروج الى حد التشديد ، أو نزول الى حد التساهل ..

(٢٥) رواه البخارى ومسلم ..

(٢٦) رواه البخارى ومسلم ، وابن حبان .

فهو ﷺ يعلم فضل الله عليه ، ويعلم واجب كل انسان نحو الله تعالى .. ولو كان الأمر يحتاج من غيره الى عمل أكثر لبين ذلك ، والا كان مقصرا فى التبليغ والبيان ..

● الغلو .. يؤدى الى الشرك :

يحدثنا الامام البخارى عن الأصنام الأولى « ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » .. فيقول نقلا عن ابن عباس رضى الله عنهما : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح .. فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم : أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم .. ففعلوا . ولم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ونسى العلم : عبت » ..

ويقال : انهم لما ماتوا علق الناس على قبورهم .. ثم نحتوا لهم التماثيل .. ثم لما طال عليهم العهد عبدوهم من دون الله .. وهكذا كان الغلو فى شأن الصالحين يؤدى دائما الى الشرك والعياذ بالله ..

يقول تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق » (٢٧) .

غالت اليهود فى شأن العزيز .. فنسبوه الى الله تعالى !!

وغالى النصارى فى شأن المسيح — عليه السلام — فعبدوه مع الله تعالى ، وجعلوا منه ابنا له .. بل وقال بعضهم ان الله هو المسيح عيسى ابن مريم !!

وغالى اليهود والنصارى فى شأن أحبارهم ورهبانهم .. فاتخذوهم أربابا من دون الله .. يحللون لهم ما حرم الله ، ويحرمون عليهم ما أحله

لهم .. يقول جل شأنه : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » (٢٨) .

ولهذا .. نرى الاسلام يحذرننا أشد التحذير من الغلو في شأن الأولياء والصالحين .. لأن الناس انما ضلوا وانحرفوا الى عبادة الأصنام عندما عظموا الموتى فصوروا أصنامهم في صورهم .. ولهذا لعن الرسول ﷺ المتخذين على القبور المساجد والمسرح ..

ونهى ﷺ عن الصلاة الى القبور ، أو اتخاذها عيداً وموسماً .. فسأل الله تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا منه عيداً ..

وأمر عليه الصلاة والسلام : بتسوية القبور .. ونهى عن اتخاذ التماثيل ، وغلظ في ذلك تغليظاً شديداً ..

● يقول الدكتور يوسف القرضاوى — جزاه الله عن الاسلام خيراً — : « ... ان غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم وولايتهم لله تعالى — وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات — يؤدي الى أنواع من الشرك .. كالنذر اليهم ، والذبح لهم ، والاستعانة بهم ، والاقسام بهم على الله تعالى ، ونحو ذلك ..

وقد يفضى بهم الغلو الى الشرك الأكبر — والعياذ بالله — وهو اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيراً في الوجود وراء الأسباب والسنن الكونية .. فيدعونهم من دون الله أو مع الله .. وهذا هو الاثم العظيم ، والضلال البعيد ..

ولهذا كان : « مما حذر الاسلام منه أشد التحذير تعظيم القبور .. وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين ، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضى الى تعظيم القبور ، منها : اتخاذها مساجد ، والصلاة اليها ، واضاعتها ، وايقاد المسرح عليها ، والبناء عليها وتجسيصها ، والكتابة عليها ، وتعليقها ورفعها ، واتخاذها عيداً .. »

« والحكمة فى نهى الاسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة الى الشرك الأصغر والأكبر [كما رأينا فى قوم نوح] ، وكما هو مشاهد الى اليوم] فالعلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثاناً معبودة .. ولهذا قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد .. اشدت غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٢٩) .

« ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه .. أن ما حذر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الاسلام .. فقد اتخذوا قبور بعض الصالحين أعياداً ، وشيدوها وزخرفوها ، وبنوا عليها المساجد والقباب ، وأوقدوا عليها السرج والقناديل ، ووقفوا لذلك الوقوف ، ونذروا لها النذور ، وطافوا بها كالكعبة ، واستلموها كالحجر الأسود ، وأوسعوا جدرانها لثماً وتقبيلاً .. ومنهم من يسجد لها ، ويعفر الخدود على ترابها ، ويقتف خاشعاً مستكيناً يستغيث بأصحابها .. يسألهم — مشافهة — قضاء الديون ، وتفريج الكربات ، واغاثة اللهفات ، وشفاء المرضى ، والنصر على الأعداء !!

وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة فى رقاع الى صاحب القبر .. وهذا من الشرك الصريح ، ولا حول ولا قوة الا بالله » ا هـ (٣٠) .

● ويقول فضيلة الشيخ محمود محمد خطاب السبكي (٣١) — رحمه الله — : « ... من البدع المذمومة ما التزموه فى المقابر من العادات المقبوضة .. كاتخاذها أعياداً تشد اليها الرحال .. ويجتمع فيها النساء والرجال والأطفال .. ولا سيما فى ليلتى العيدين ، وأول جمعة من رجب .. وتذبح عندها الذبائح ، وتطبخ أنواع المأكلى .. فيأكلون ويشربون ، ويبولون ويتغوطون ، ويلعبون ويسخبون .. ويقرأ لهم القرآن من يستأجرون لذلك من العميان .. ولهم أعمال من دون ذلك هم عليها عاكفون !!

(٢٩) رواه مالك .

(٣٠) حقيقة التوحيد ، مرجع سابق ، ص ٦٤ — ٦٨ بتصرف .

(٣١) فى الدين الخالص ، ج ٨ ، ص ٨٨ — ٩١ بتصرف .

« واذا كان ما يأتون من القراءة والذكر هنالك من البدع المنكرة ، وكان بعض المباحات يعد هناك من الأمور المكروهة أو المحرمة .. فما التول في سائر أفعالهم الظاهرة والباطنة ؟ »

ولو لم يرد في حظر هذه الاجتماعات، في المقابر الا حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — مرفوعا : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » (٣٢) لكفى .. ولكن ذلك كله قد صار من قبيل شعائر الدين وآيات اليقين .. توقف له الأوقاف التي يسجلها ويحكم بصحتها قضاة جاهلون .. ويأكل منها أدياء العلم المضلون !!

« وقد كان بعض الصحابة — وغيرهم من علماء السلف — يتركون بعض السنة أحيانا حتى لا يظن العوام أنها مفروضة بالتزامها ، تأسيا بالرسول ﷺ في ترك المواظبة على بعض الفضائل خشية أن تصير من الفرائض .. فغلب من بعدهم خلف قصروا في الفرائض وتركوا السنن والشعائر ، وواظبوا على هذه البدع .. حتى انهم ليتركون لأجلها الأعياد والجمع !!

« ومن المنكر .. ما يقع من بعض من لا خلاق لهم ، من اعتقادهم في قبور الصالحين والأولياء ، وبعض الأشجار والأبواب .. أنها تنفع أو تضر ، أو تقرب إلى الله تعالى ، أو تقضى الحوائج بمجرد التشفع بها إلى الله تعالى !! .. يطوفون بها طواف الحجاج ببيت الله الحرام .. ويخاطبون الميت بالكلمات المكفرة كقولهم : « اتصم ظهره ياسيد وخذ عمره » !! أو « تصرف فيه يا امام » !! ، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد !! « لكل جهة رجل ينادونه .. فأهل مصر يدعون الشافعى والبدوى والبيومى !! ، وأهل العراق والهند والشام يدعون عبد القادر الجيلى !! ، وأهل مكة والطائف يدعون ابن عباس] كان ذلك قبل انتشار المذهب الوهابى فى المملكة العربية السعودية ، وقد تلاشى ذلك بحمد الله [، وينذرون لهم النذور ، ويذبحون لهم الذبائح ، ويوقدون لهم السرج ، ويضعون الدراهم فى صناديقهم !!

(٣٢) أخرجه أحمد والأربعة والحاكم ، وصححه ..

« ولا ريب أن هذا من أعمال الجاهلية ، ومخالف لدين الله تعالى ورسوله ، وما كان عليه سلفنا الصالح رضى الله عنهم .. ولو عرف الناذر بطلان ذلك ما أخرج درهما ، فان الأموال عزيزة عند أهلها .. قال تعالى : « ولا يسألكم أموالكم . ان يسألكموها فيحفظكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » (٢٣) .

« فالواجب على كل عاقل تحذير من يفعل ذلك .. لأنه اضاعه للمال ، ولا ينفعه ما يخرج به ولا يدفع عنه ضررا .. بل فيه المخالفة والمحاربة لله تعالى ورسوله ﷺ ..

« ويجب رد المال الى من أخرجه ، وقبضه حرام .. لأنه أكل مال الناذر بالباطل ، وقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (٢٤) — أى ما لم يبيحه الشرع كالنذر لغير الله ، وكالعصب ، والقمار ، والربا .. ونحو ذلك — وفيه تقرير الناذر على قبض اعتقاده وشنيع مخالفته .. فهو كحلوان الكاهن ومهر البغى .. ولأنه تدليس من هؤلاء القوم وإيهام له أن الولي ينفعه ويضره .. فأى تقرير لمنكر أتد من قبض النذر على الميت ، وأى تدليس أعظم من هذا ؟ !

« يقول الصنعانى — بعد كلام فى هذا الموضوع — : « فان قلت : هذا أمر عم الأبلاد واجتمعت عليه سكان الأرض شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا — فلا بلدة ولا قرية الا وفيها قبور ومشاهد ، وأحياء يعترفون فيها ويعظمونها ، وينذرون لها ، ويهتفون بأسمائها ، ويحلفون لها ، ويطوفون بفناء القبور ، ويسرجونها ، ويلقون عليها الورود والرياحين ، ويلبسونها الثياب ، ويصنعون كل ما يقدرون عايه من العبادة لها وما فى معناها من التعظيم والخشوع !! .. بل هذه مساجد المسلمين ، غالبها لا يخلو عن قبر أو مشهد يقصده المصلون فى أوقات الصلاة ، يصنعون

(٢٣) محمد : ٢٦ . ٣٧ ، وقوله تعالى : « فيحفظكم » : أى يجهدكم ويطلب منكم كل أموالكم ، « ويخرج أضغانكم » : أى يظهر أحقادكم .
(٢٤) النساء : ٢٩

فيه ما ذكر أو بعضه ، ولا يسع عقل عاقل أن منكرا يبلغ ما ذكرت من
الشناعة ويستكت عليه علماء الاسلام !!

« قلت - والقاتل هو الصعاني - : ان أردت الانصاف وتركت
متابعة الأسلاف ، وعرفت أن الحق ما قام عليه الدليل ، لا ما اتفق عليه
العالم جيلا بعد جيل .. فاعلم أن هذه الأمور التي نذندن حول انكارها ،
ونسعى في هدم منارها .. صادرة عن العامة الذين اسلامهم تقليد
الآباء بلا دليل .. ينشأ الواحد منهم ، فيجد أهل بآدته يلقتونه في
الطفولة أن يهتف باسم من يعتقدون فيه ، ويراهم يندرون له ويعظمونه
.. ويرحلون به إلى محل قبره ويلطخونه بترابه ويطوفون به على قبره
.. فينشأ وقد وقر في قلبه عظمة ما يعظمونه !! »

فنشأ على هذا الصغير ، وشاخ عليه الكبير ، ولا يسمعون
انكارا عليهم !!

بل ترى من يتسم بالعلم ويدعى الفضل معظما لما يعظمونه ..
قابضا للذور ، آكلا ما ينحر على القبور .. فيظن أن هذا هو دين
الاسلام !!

ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر ، ويعرف بارقة من علم الكتاب
والسنة والأثر .. أن سكوت العالم أو العالم - بكسر اللام في الأولى ،
وفتحها في الثانية - على وقوع منكر ليس دليلا على جوازه « (٣٥) »
« ويقول ابن القيم : « كان النبي ﷺ إذا زار القبور يزورها للدعاء
لأهلها والترحم عليهم والاستغفار لهم .. »

فأبى المشركون الا دعاء الميت ، والاقسام على الله به ، وسؤاله
الحوائج ، والاستعانة به ، والتوجه إليه .. بعكس هديه ﷺ ، فإنه هدى
توحيد واحسان الى الميت ، وهدى هؤلاء شرك واساءة الى نفوسهم
والى الميت ..

(٣٥) انظر تطهير الاعتقاد من أدران الالحاد ص ٢٩ ، والمنهل العذب
المورود ج ٩ ص ١٠٣ ، والنص منقول من الدين الخالص ..

وهم ثلاثة أفسام : أما أن يدعوا للميت ، أو يدعوا به ، أو عنده ••
ويرون الدعاء عنده أولى من الدعاء في المساجد •• ومن تأمل هدى
رسول الله ﷺ تبين له الفرق بين الأمرين « (٢٦) •

يقول الله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا • الذين ضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٢٧) •
فقاله تعالى يأمر رسوله ﷺ قائلا : قل يا محمد : هل نخبركم ،
أيها القوم ، بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبعون به ربعا ، فنالوا به
عظبا وهلاكاً ؟ • انهم الذين لم يكن عملهم على هدى واستقامة ، بل على
جور وضلالة ، لأنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به ، وهم يظنون أنهم
لله مطيعون ، وفيما ندب اليه مجتهدون !!

ويقول جل شأنه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » (٢٨) •
أي أطيعوا الله ورسوله في كل أمر ونهي •• وذلك باتباع الكتاب
والسنة ••

ويقول جل وعلا : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله
ويغفر لكم ذنوبكم » (٢٩) •

أي قل لهم يا محمد : ان كنتم كما تزعمون تحبون الله ، فحققوا
قولكم باتباعي ، فان ذلك علامة صدقكم في محبتكم لله ، فيصفح ويغفر
عما مضى من ذنوبكم فهو وحده الغفور لذنوب عباده ، الرحيم بهم ••
كما يقول : « فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا
ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (٤٠) •

أي : من كان يخاف ربه يوم لقائه ، ويراقبه ويرجو ثوابه ،
فليخلص له العبادة ، ولا يجعل له شريكا في عبادته ••

(٢٦) انظر زاد المعاد ج ١ ، ص ١٤٦

(٣٨) النساء : ٥٩

(٢٧) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

(٤٠) الكهف : ١١٠

(٣٩) آل عمران : ٣١

بل انه تعالى .. يقسم بذاته قائلا : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٤١) .

أى : فوربك يا محمد ، لا يؤمنون حق الايمان حتى يجعلوك حكما فيما تنازعوا واختلفوا فيه من أمورهم ، ثم لا يجدوا ضيقا فى انفسهم مما حكمت بينهم ، ويسلموا لقضائك وحكمك تسليما مطلقا ، مع الاذعان والقبول ..

وتحكيم الرسول ﷺ يكون بالرجوع اليه حال حياته .. والى سنته المطهرة الثابتة بعد موته .. فما بال أقوام منا يعرضون عن تحكيم الرسول ﷺ ويأبون الامتثال لأوامره ، ويتبعون شياطينهم وكهانهم وشيوخهم ؟ !

لقد ثبت أن الغلو فى شأن الصالحين يؤدى بالمغالين من الناس الى الشرك بنوعيه — الأصغر والأكبر — ولهذا نرى الرسول ﷺ ينهى عن البناء فوق القبور أو تجصيصها أو تعظيمها ..

عن جابر رضى الله عنه قال : « نهى رسول الله ﷺ أن يجصص المقبر — أى يطلى بالجير — أو يقعد عليه ، أو يبنى عليه » (٤٢) ..

لهذا رأى العلماء أنه من البدع المنكرة الكتابة على القبور أو رفعها أعلى من تبر .. أو وضع القباب عليها ، لنهى الرسول ﷺ عن ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم .. ولهذا أفتى بعض العلماء بهدم البناء على القبور . وقال الشافعى فى « الأم » : وجدت بمصر من الولاة من هدم القبور المسنمة — أى المرتفعة — فلم يمنعه أحد ..

وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية : هل تصح الصلاة فى المسجد اذا كان فيه قبر والناس تجتمع فيه لصلاتى الجماعة والجمعة ، أم لا ؟ .. وهل يمهّد القبر أو يعمل عليه حائطا أو حاجز ؟ .

(٤١) النساء : ٦٥

(٤٢) رواه أبو داود وانسائى ..

فأجاب رحمه الله : « اتفق الأئمة أنه لا يبنى مسجد على قبر ..
لأن النبي ﷺ قال : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ،
ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » ..

« وأنه لا يجوز دفن ميت فى مسجد ، فان كان فى المسجد قبل
الدفن غير ، اما بتسوية القبر ، واما بنبشه ان كان جديدا .. وان كان
المسجد بنى بعد القبر ، فاما أن يزال المسجد ، واما أن تزال صورة
القبر .. فالمسجد الذى على القبر لا يصلى فيه فرض ولا نفل ،
فانه منهي عنه » (٤٢) .

ويقول الشوكانى : « الظاهر أن رفع القبور زيادة على القدر
المأذون فيه محرم .. وقد صرح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من
أصحاب الشافعى ومالك ..

والقول بأنه غير محذور لوقوعه من السلف والخلف فلا نكير [كما
قال الامام يحيى والمهدى فى الغيث] لا يصح .. لأن غاية ما فيه أنهم
سكتوا عن ذلك .. والسكوت لا يكون دليلا اذا كان فى الأمور الظنية ،
وتحريم رفع القبر ظن » ..

ويقول فضيلة الشيخ السيد سابق : « ومن رفع القبور الداخل
تحت الحديث دخولا أوليا : القباب والمشاهد المعمورة على القبور ،
وأىضا هو من اتخاذ القبور مساجد ، وقد لعن رسول الله ﷺ فاعل ذلك .

« وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها مفاسد يئس لها
الاسلام .. منها اعتقاد الجهلة فيها كاعتقاد الكفار فى الأصنام ،
وعظموها ذلك غظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضر .. فجعلوها
مقصدا لطلب قضاء الحوائج ، وملجأ لنجاح المطالب .. وسألوا منها
ما يسأل العباد من ربهم .. وشهدوا اليها الرخايل ، وتمسحوا بها
واستغاثوا !!

(٤٢) الفتاوى الكبرى . لابن تيمية ، نشر دار المعرفه بيروت ،

« وبالجملة : أنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام الا فعلوه .. فانا لله وانا اليه راجعون .. »

« ومع هذا المنكر الشنيع ، والكفر الفظيع .. لا تجد من يغضب لله ويغار حمية للدين الحنيف .. لا عالماً ولا متعلماً ، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً !! »

« وقد توارد اليينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين - أو أكثرهم - اذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجراً .. فاذا قيل له بعد ذلك : بشيخك ومعتمدك الولي الفلاني .. تلعنم وأبى واعترف بالحق .. وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق فوق شرك من قال : انه تعالى ثانی اثنين أو ثالث ثلاثة » !! (٤٤)

ويقول ابن حجر غي « انزواجر » : « وتجب المبادرة لهدم المساجد والقباب التي على القبور .. اذ هي أضرم من مسجد الضرار ، لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ لأنه نهى عن ذلك ، وأمر بهدم القبور المشرفة ، وتجب ازالة كل قنديل أو سراج على قبر .. ولا يصح وقفه ونذره » .

[ونحن لا نقول بقول الداعين الى هدم هذه المساجد - وهي تعد بالألوف - « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها » [البقرة : ١١٤] ولكننا ندعو الى تطهيرها من جميع مظاهر الشرك ، وذلك بتبصير الناس بالعقائد السليمة التي قام الاسلام لتأصيلها ، عن طريق رجال الدعوة والارشاد من القائمين على أمر هذه المساجد نفسها لثقة الناس فيهم] .

وعن عبد الله البجلي قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « انى أبرأ الى الله أن يكون لى منكم خليل ،

(٤٤) فقه السنة ، للشيخ السيد سابق ، نشر دار التراث العربى ،

فان الله عز وجل قد اتخذنى خليلاً •• وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد •• ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، انى أنهاكم عن ذلك » (٤٥) •

وعن عائشة رضى الله عنها : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بالحبشة فيها تصاوير •• فقال ﷺ : « ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور •• أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » (٤٦) •

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ : « لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » (٤٧) •

وروى مسلم عن هارون أن ثمامة بن ثسفى حدثه قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس •• فتوفى صاحب لنا •• فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها ••

وعن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ : ألا أدع تمثالا الاطمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته » ••

ويقول الترمذى : « والعمل على هذا عند بعض أهل العلم •• يكرهون أن يرفع القبر فوق الأرض الا بقدر ما يعرف أنه قبر ، لكيلا يوطأ ولا يجلس عليه » ••

ويقول الشافعى : « وأحب ألا يزداد فى القبر ترابه من غيره •• وانما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبرا أو نحوه •• وأحب أن لا يبنى ولا يجصص ، فان ذلك يشبه الزينة والخيلاء ، وليس الموت موضع واحد منهما •• ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة » ••

(٤٥) رواه مسلم •

(٤٦) رواه البخارى ومسلم ••

(٤٧) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان •

ويقول صاحب « الدين الخالص » : « ... اتخاذ القبور التي لم تتدرس مساجد حرام .. كما يحرم بناء المساجد على القبور .. ويجب هدم كل مسجد بنى على قبر .. »
« وأما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا .. خوفا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به .. وربما أدى ذلك الى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية .. »

« ولما احتاجت الصحابة والتابعون رضى الله عنهم الى الزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ ، حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة الى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ، ومنها حجرة عائشة مدفون رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر ، بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد فيصلى اليه العوام ، ويؤدى الى المحذور .. »

« ثم بنوا جدارين فى ركنى القبر الشمالين حرفوهما حتى التقيا فلا يتمكن أحد من استقبال القبر .. »
« وقد حمل بعضهم الوعيد على من كان فى ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان ، وهو تقييد بلا دليل .. لأن التعظيم والافتتان لا يختصان بزمان دون زمان .. وقد يؤخذ من قوله ﷺ : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد » ، ومما روى ابن عباس قال : « لعن النبي ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .. أن محل الذم على ذلك أن تتخذ المساجد على القبور بعد الدفن لا لو بنى المسجد أولا وجعل القبر فى جانبه يدفن فيه واقف المسجد أو غيره فليس بداخل فى ذلك .. »

« قال العراقى : والظاهر أنه لا فرق .. وأنه اذا بنى المسجد لقصد أن يدفن فى بعضه فهو داخل فى اللعنة ، بل يحرم الدفن فى المسجد .. وان شرط أحد أن يدفن فيه لم يصح الشرط لأنه مخالف لمقتضى وقفه مسجدا .. وان قبر ميت فى مسجد وطال مكثه سوى القبر حتى لا تظهر صورته ، ويحرم دفن الميت فى المسجد .. »

« قال النووي فى « المجموع » : وأما حفر القبر فى المسجد فحرام شديد التحريم » (٤٨) •

ويحدثنا فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى عن البدع التى نشأت عن اتخاذ المساجد فوق القبور •• فىقول : « ••• هيهات أن يترك أهل البدع مكانا لا يدخلون فيه ببدعهم وظلمات أفكارهم •• حتى يهدروا الشريعة ، وحتى لا يبقى فى الدين الا اسمه !!

« ونسوق بعض البدع نراها عند القبور على أنها ليست من دين الله تطبيقا لحديث : « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » ، وحديث : « أصحاب البدع •• كلاب أهل النار » ••

« من هذه البدع •• وضع الأضرحة والمقابر فى المساجد •• ورسول الله ﷺ يقول : « لعن الله اليهود والنصارى : اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ••

« وبناء المساجد على الأضرحة العن وأضل وأجرم •• فكانها لم تبين لله ، بل لأجل من بداخل الضريح •• وقد قال ﷺ : « الأرض كلها مسجد الا المقبرة والحمام » (٤٩) •• وقال : « لا تصلوا الى القبور ولا تجلسوا عليها » •• ونرى فى هذا الكفاية ••

« وان من يتعمد الذهاب الى تلك المساجد ذات القبور •• انما يذهب من أجل وجود قبر من يذهب اليه فى المسجد •• فىكون قد دعا مع الله أحدا •• والله يقول : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » (٥٠) •• حتى أنك ترى — فى هذه الأيام — مسجدين •• أحدهما ليس به قبر ، والآخر به قبر •• وقطعا الخالى من القبور هو الأولى بالصلاة فيه كحكم الشرع — كمسجد الأزهر مثلا — ولكنك تجد الناس يحجمون عن الصلاة فيه ويجتمعون على الصلاة فى المسجد

(٤٨) الدين الخالص ، مرجع سابق ، ج ٣ ص ٢٢٨ — ٢٢٠

(٥٠) الجن : ١٨

(٤٩) رواه أحمد ..

ذى القبر .. بل ويفرشون الأرض بجواره تحت قبيظ الشمس لأداء الصلاة ، ولا يذهبون الى المسجد الآخر !!

« ترى ما زعمهم فى هذا ؟ .. الله أمرهم بأن يضعوا أنفسهم فى القبيظ ويهجروا المسجد الآخر ؟ .. ولأى شىء ؟ !

« أم تراهم أهدى من محمد — ﷺ — وصحابته الذين لعنوا من فعل هذا ؟ !

« ووقف الأموال على مقبرة ما ، أو وقف الأتيان باسم الرحمة أو قراءة القرآن بما هو معهود الآن .. أو إقامة الحيشان وغرس الأشجار والحصار ووضع الرياحين .. من البدع التى يجهلها الكثير ، لأنه تعطيل وحبس للأموال لحساب الأموات على حساب الأحياء — وحتى وان كانوا غير ذى قبرى منهم أولى !!

« أما وضع الجريد على القبر ، فقد كان خصوصية لرسول الله ﷺ .. فعلها مرة على قبرين لشخصين ، ولم يفعلها بعد ذلك لأحد ، ولم يتم أحد من الصحابة بفعلها ..

« وذكر العلماء .. أنها كانت مجرد شفاعة منه لدى الله لتخفيف العذاب عنهما ، وقبل الله رجاءه فيهما لمدة محدودة نص عليها فى الحديث « ما لم يبيسا » .. أى ما دامت الجريدتان خضراوين ..

« أما قراءة القرآن ، واستئجار المقرئين للتلاوة عند القبور ، وفى البيوت فى موضع خروج الروح ، وفى السراقات ، فهذا عمل قد لا يقبله الله سبحانه وتعالى .. لأن هذا القارىء اذا لم يعلم أنه سيأخذ أجراً على قراءته ما قرأ .. فالقراءة ليست لله ولكنها للأمال .. وهذا فضلا عن أنها عمل يقصد به غير وجه الله ..

« هذا بالنسبة للقارىء .. أما بالنسبة لمستأجر القارىء ، فمن أين له أن هذا العمل فى ميدان الدين ؟ .. وهل ثبت لديه أن الله يقبل هذا العمل ؟

« علاوة على ما فى ذلك من التباهى والرياء والاسراف فى ضياع الوقت .. والحديث يقول : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .. »
« واشترط الصلاح فى الوند .. لوصول ثواب الدعاء ، فكيف بحال القارىء الذى لا نعلم له ظاهرا ولا باطنا ؟ !

« واذا كنت مخلصا لهذا الميت .. فتعلم القرآن وتلاوته ، وصل الصلاة فى ميقاتها ، وصم شهرك من غير فسوق ، وأد حقوق ربك كلها وحقوق الخلق بالدرسنى .. ثم ادع لمن شئت ، فإنك مجاب باذن الله .. »

« وعلى فرض أن القراءة صحيحة .. فان خديجة — رضى الله عنها — كانت أحب الناس لرسول الله ﷺ ، ومع هذا لم يفعل لها ذلك .. وحزمة عمه سيد الشهداء .. وسعد بن معاذ ، وكثير غيرهم .. لم يشبث أنه قرأ لهم قرآنا ، بل الثابت هو الدعاء ، والاستغفار ، والصدقة ، وأداء ما على الميت من زكاة أو حج أو صيام أو ديون أو عهود وعقود .. »

« وغرس الأشجار فى القبور أو نصب النخيام عليها من البدع .. وقد رأى ابن عمر خيمة على قبر فسال : لم ؟ قالوا : نطلله .. فقال : دعوه يظلمه عمله .. أما غرس الأشجار فيلحق سابقه فى الحكم بالنسبة لوضع الجريد عليها .. »

« ووضع الستور والكساوى والعمائم على الأضرحة من البدع .. وهو فضلا عن أنه اسراف ينهى عنه الشرع ، وزينة فى موطن العبرة .. فانه تعظيم للموتى لفتنة الأحياء .. والأحياء الفقراء أولى ألف مرة عن تجميد هذا المال .. علاوة على أن وضع الستور من الأمور المنهى عنها .. وقد روى البخارى عن عائشة قالت : « سترت الباب بنمط [أى ستارة أو بساط خامته من نسيج رفيع] ، وجاء النبى ﷺ فرآها فغضب وقال : « يا عائشة ، ان الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين » .. »

« ومن البدع المنكرة فى المقابر : وضع الشموع عليها ، وزيارة النساء لها .. وفى الحديث : « لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين

عليها المساجد والسرَج » •• لأن وضع النار على من فى القبور من أشد ما يتأذى به الميت ، حتى أن المفتهاء قرروا ألا نضع فى القبر حجرا دخل النار دون ضرورة •• أما زيارة النساء للقبور •• وهى التى شرعت للرجال للعبرة — فكيف بامرأة تخرج الى المقبرة حيث يوجد الشباب والرجال ، فيفتنون بها أو تفتن بهم ، وتخرج عن الاطار الاسلامى فى أهداف زيارة القبور بما تصنع من فتنة فى موضع العبرة ••

« أصف الى هذا •• أن بعض النساء ضعيفات القلوب ، فبمجرد وصولهن الى المقابر تراهن يلطن الخدود ويصرخن ويشققن الجيوب ، ويدعين بدعوى الجاهلية •• والحديث يقول : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » ••

« وقد رأى رسول الله ﷺ ابنته فاطمة وقد عادت من خارج البيت •• فقال لها : « هل ذهبت معهن الى المقابر » ؟ قالت : لا يارسول الله ، وكيف أذهب وقد سمعت تشددك فيها ؟ فقال : « لو ذهبت معهن الى المقابر ما شممت ريح الجنة » ••

« وقد روى أبو داوود والترمذى حديث : « لا تتبع الجنابة بصوت ولا نار » •• ولكنا نقول : ان مسئولية هؤلاء النسوة والفتيات اللاتى يتواجدن عند القبور لا تنحصر فيهن فقط ، بل تعم من ورائهن من الرجال أوليائهن الذين يسمحون بهذا العبث ••

« والطواف حول القبور وتسميتها حرما من البدع •• وعلى المسلم أن يعلم أن الطواف وقف على بيت الله الحرام فقط •• يقول تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق » (٥١) •• ولا يصح الطواف حول غيره من الأضرحة تشبيهاً منهم لهذه الأضرحة بقبلة رب العالمين ••

« فكأن الطائف بقبر ولى أو غيره يقول : ان لى قبليتين وحرمين •• قبلة وحرما اختارهما الله ، وقبلة وحرما اخترتهما أنا — نعوذ بالله من ذلك — وقد تعددت لديهم الحرم •• فضموا « الحرم الزينبى » ،

و « الحريم الأحمدي » ، و « الحريم الحسيني » ، و « الحريم الغريبي » ،
و « حريم الشافعي » ، و « حريم القنائي » .. الخ !!

« أصف الى ذلك .. أن الشيطان انما استزل هؤلاء الطائمين
لغرض ما في نفسه سينفذه بعد سنين ، ليبعد الناس تماما عن كعبة الله
الأصلية .. أى أنه اذا كان الطائف بقبر ما — الآن — يعلم أن قبلته
هي الكعبة ، فسيأتى يوم على فعلته هذه أن تكون طوافا دون الكعبة !!

« فعلى المتحرى لدينه والغيور عليه أن يتقى الله ربه ، ولا يعطى
للسيطان أغلالا يجبس بها أتباعه ، وخاصة وقد ألفوا أحاديث مكذوبة
بأن زيارة ضريح فلان الولي ثلاث مرات تعدل حجة تامة !! .. وصدق
الحديث الشريف : « ما أحدث الناس بدعة م إلا رفع من السنة مثلها » !!
« ومن أفضح البدع : الخشوع للميت عند زيارته والاستئذان منه
للدخول عليه !! ، وكل هذا من عبادة وتعظيم غير الله ..

« وقد يحلف أحدهم بالله خمسين مرة كذبا دون مبالاة ، ولكنك
لو أردت اختباره وطلبت منه الحلف بصاحب الضريح فزع وخاف من
سوء العاقبة التي يزعم أنها ستحل به من الولي : « ومن الناس من يتخذ
من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » (٥٢) .

« ويقول تعالى في آية أخرى : « يخشون الناس كخشية الله
أو أشد خشية » (٥٣) .

« وقد لا يستطيع أحدهم أن يقدم على عمل ما — مهما دللناه على
الاستخارة الشرعية والاستشارة الدينية — الا بعد أن يمنحه شيخه
سادن الضريح اذنا بالعمل مهما كانت النتيجة .. فجعلوهم بمنزلة
الأخبار والرهبان الذين يدعون أن ما يحلونه هم في الأرض يحله الله
في السماء ، وما يحرمنه يحرمه الله !! « سبحانه وتعالى عما يقولون
علوا كبيرا » (٥٤) .

« ومن هذه البدع الضالة : التقبيل والاستلام للأضرحة وتقبيل أعتابها !! .. عذا كله من الشرك والتعلق بالماديات على حساب الروحانيات ، وقد يحتج من يفعل ذلك باستلام رسول الله ﷺ للحجر الأسود !!

« وفي هذا أيضا نقول : ان هذه خصوصية للحجر الأسود فقط .. وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « والله انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انى رايت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » .. أترى هؤلاء الذين يقبلون الأضرحة والاعتاب .. اهدى من عمر بن الخطاب وأشد تحققا منه فى دين الله ودرجات الايمان ؟ !

« ما هو الا الشيطان أراد أن يصددهم عن توحيد الله واغراضه بالعبادة .. وانى لأعجب من هؤلاء الذين يقبلون الأعتاب والأخشاب ، ويظنون أنهم على الهدى ، بل وتراهم من أشد المتحمسين لأفعالهم .. وما أرى ذلك الا من حمية الشيطان للدفاع عن عادات وثنية هدمها الاسلام ويحييها هؤلاء .. وانى أسأل أحدهم : هل ثبت أن أبا بكر رضى الله عنه قبل قبر رسول الله ﷺ ؟ .. أو هل قبل عمر قبر رسول الله ﷺ وقبر أبى بكر ؟ !

« فانه اذا كان التمسح محمودا ، والتقبيل يورث البركات .. فلا شك فى أن تقبيل قبر رسول الله ﷺ فيه أعظم البركات .. ولكن هل يجدى هذا فى عقول قد تبلدت وراى على قلوب أصحابها عادات مبتدعة ، وقيم هدمها الاسلام ؟ !

« وتقديم المعرائض والشكاوى للأولياء من البدع الشاذة .. والله يعلم أن من مات فهو فى شغل شاغل بأخرفته حيث قال : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » (٥٥) .

[أى الذين تدعونهم من دون ربكم ما يملكون قشر النواة] •

ويقول تعالى : « ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم » (٥٦) .

[أى ان تدعوا هؤلاء الناس لا يسمعوا دعاءكم .. ولو سمعوا دعاءكم وفهموا قولكم بأن جعل لهم سمع يسمعون به بعد أن ماتوا ما استجابوا لكم لأنهم لا يستطيعون النطق .. ويوم القيامة يتبرأون من عبادتكم ايهم بعد أن جعلتموهم شركاء لله بتوجيه الدعاء اليهم] .
ويقول جل شأنه : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » (٥٧) .

[أى : من أضل ممن يدعو حجرا أو خشبا أو ميتا ويجعلهم آية — بتوجيه الدعاء اليهم — وهم لا يستجيبون دعاءه أبدا الى يوم القيامة ؟ ! ، انهم يدعونهم ولكنهم فى غفلة عن دعائهم واستغاثتهم بهم عند المصائب ، لأنهم — بعد أن ماتوا — لا يسمعون ولا ينطقون ولا يعقلون .. وسيكونون عندما يحشر الناس يوم القيامة بين يدي ربهم للحساب اعداء لهم .. لأنهم سوف يتبرأون منهم ويجحدون بعبادتهم ايهم .. وسيقولون : ياربنا ، ما أمرناهم بعبادتنا وانا نتبرأ اليك منهم .. وتأمل كيف وصف تعالى الدعاء فى هذه الآية بأنه عبادة .. فالدعاء هو مح العبادة] ..

ويقول جل وعلا : « ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » (٥٨) .

[أى ادعوا الذين تدعونهم .. انهم لا يقدرون عن دفع الضر عنكم أو تحويله الى غيركم .. وانما يقدر على ذلك الله وحده ، الذى له الخلق والأمر] ..
ثم يقول فضيلته :

« والجلوس على المقابر أو وطؤها من البدع .. وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وحذر حيث قال : « لأن يجلس أحدكم على جمرة

(٥٧) الأحقاف : ٥ ، ٦

(٥٦) فاطر : ١٤

(٥٨) الاسراء : ٥٦

فتخلص الى ثيابه ثم تخلص الى بدنه فتحرره ، أهون من أن يجلس على قبر» (٥٩) .. وكما أن الجلوس على القبر منهي عنه ، كذلك الابتداء والاستناد حيث قال عمر بن حزم : « رأيت رسول الله ﷺ متكئاً على قبر فقال : « لا تؤذ صاحب القبر » ..

« ومن أشد هذه البدع : التبول والتغوط عليها والتقدير لها .. فان لها حرمة ، وقد روى أحمد ومسلم حديث : « زوروا المقابر فانها تذكر الموت والآخرة » .. وزاد أحمد : « فان فيها عبرة » .. فكيف يكون موطن العبرة مقذراً أو مكاناً للنجاسات ؟ ! .. وهل يرضى أحد ممن يفعلون ذلك أن يضع أحد على قبره ما تأنف الانس والملائكة منه ، ولا ترضاه الا الكفرة من الجن » ا هـ (٦٠) .

وللشيخ محمد الغزالي - جزاه الله عن المسلمين خيراً :
« فشا في بلاد كثيرة بناء المساجد على قبور الموتى ، اعزازاً لذكراهم ، وتقرباً الى الله - كما يقال - بمحبتهم ومجاورتهم !! ، مع أن النصوص قاطعة بمنع هذا العمل ولعن مرتكبيه .. وكان أولى بهؤلاء البائين أن يدعوا الموتى الى ما قدموا ، وأن يقفوا عند حدود الله فلا يعصون وصاياهم .

« وهذه البدعة .. تسربت الى المسلمين عن النصرانية بعد تحريفها .. فقد صح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسته رأته بأرض الحبشة يقال لها « مارية » ، وذكرت ما رأته فيها .. فقال رسول الله ﷺ : « أولئك قوم اذا مات منهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور .. أولئك شرار الخلق عند الله » .

« وهذه البدعة .. دخلت النصرانية من الوثنية الأولى .. فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وغيره من السلف : أن «ودا» و «سواعا»

(٥٩) رواه مسلم والنسائي وابن ماجه وغيرهم .

(٦٠) انظر كتاب « هذه دعوتنا » ، للشيخ عبد اللطيف مشتهرى -

نشر دار الاعتصام ، ص ١٩٣ - ٢٠٦ بتصرف .

وأخواتهما ، كانوا قوما صالحين من أمة نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم .. ثم صوروا تماثيلهم .. ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ، فكان ذلك مبدءاً لعبادة الأصنام .

« واغلاقاً لباب الفتنة وسداً لذرائع الفساد .. شدد النبي عليه الصلاة والسلام على المسلمين في حظر هذا المسلك ، وعزم عليهم أن ينفخوا أيديهم من الموتى ، وأن يستقبلوا الحياة بجهدهم وعزمهم ، دون تعويل على صالح مات أو بقى .. »

« فالإنسان لا يجدى عليه — أمام ربه — الا صالح عمله .. »
« وفي هذا الارشاد المبين .. يقول ﷺ : « لا تصلوا الى القبور ولا تجلسوا عليها » .. ويقول : « الأرض كلها مسجد الا المقبرة والحمام » .. ويقول : « لعن الله اليهود والنصارى : اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ألا لا تتخذوا القبور مساجد ، انى أنهاكم عن هذا » ..
« وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » .. »

« ونهى رسول الله عن تجصيص القبور والبناء عليها .. وكان يوصى جيوشه — وهو يطارد الوثنية في جزيرة العرب — ألا تدع صنما الا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً الا سوته .. »

« وعن المنصور بن سويد قال : « صليت مع عمر بن الخطاب — في طريق مكة — صلاة الصبح فقراً فيها : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » و « لا يلاف قريش » .. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب بعد انصرفهم من الصلاة ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ ، فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه .. » فقال : « انما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعا .. فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .. »

« وقد دعا رسول الله ﷺ ربه : « ألا يكون قبره بعده عيداً » —

أى موسماً تلتقى اليه الوفود .. »

« والخبراء بحقائق الأديان وطبائع النفوس يعرفون وجه الحكمة فيما أمر به الله ورسوله من تحريم اتخاذ القبور مساجد .. »

« ان رجاء البركة أول ما يذكره الخارجون على هذه النصوص ، و المحرفون لها .. لكن هذه البركة المزعومة سرعان ما تتحول الى تقديس للهالكين واتجاه اليهم بالأدعية والندور .. واستصراخ بهم فى الأزمان والنوائب .. فاذا لم يكن الأمر شركا محضا ، فهو مزلقه اليه مهما كابر المعاندون .. »

« وقد رأيت عشرات من الظلمات المكتوبة ترمى فى ضريح الامام الشافعى .. أو ترسل اليه بالبريد !! .. وسمعت المئات من سفهاء العامة ، يلهثون بالنجوى الحارة حول قبر الامام الحسين وغيره !! »

« ولم أر أسفه من هؤلاء وأولئك الا الذين يعتذرون عنهم من صعاليك المتصوفة ، وأدعياء المعرفة .. »

« على أن علاج هذه المناكر المبتدعة ، لا سبيل اليه الا باشاعة العلم والخلق ، وتهذيب العقول والطباع .. فان النبى صلوات الله وسلامه عليه لم يهدم الأصنام الا بعد أن مكث عشرين عاما يكون الأمة التى تؤمن بالله وتكفر بالطواغيت » (٦١) .



ويرد فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى (٦٢) على زعم البعض بأن المنع من اتخاذ القبور مساجد ، إنما كان لعدة خشية الافتتان بالقبور ، ثم زالت بفسوخ التوحيد فى قلوب المؤمنين ، فزال المنع ، فيقول :

« لا أعلم أحدا من العلماء ذهب الى القول بهذه الشبهة ، الا مؤلف « احياء القبور » .. فانه تمسك بها وجعلها عمدته فى رد تلك

(٦١) ليس من الاسلام ، لشيخ محمد الغزالي ، نشر دار الكتب الاسلامية ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩

(٦٢) فى كتابه : « تحذير المساجد من اتخاذ القبور مساجد ، نشر المكتب الاسلامى ببيروت ، ص ١٢١ وما بعدها .

الأحاديث المتقدمة واتفق الأئمة عليها .. فقال ما نصه : « وأما النهى عن بناء المساجد على القبور ، فاتفقوا على تعاليله بعلتين :
« احدهما : أنه يؤدي الى تنجيس المسجد ..

« وثانيهما - وهو قول الأكثرين بل الجميع حتى من نص على العلة السابقة - أن ذلك قد يؤدي الى الضلال والفتنة بالقبور ، لأنه اذا وقع بالمسجد ، وكان قبر ولى مشهور بالخير والصلاح ، لا يؤمن مع طول المدة أن يزيد اعتقاد الجهلة فيه ، ويؤدي بهم فرط التعظيم الى قصد الصلاة اليه ، اذا كان فى قبلة المسجد ، فيؤدي بهم ذلك الى الكفر والاشراك » ..

« ثم ساق شبيهاً من النقول فى العلة المذكورة عن بعض العلماء ، منهم الامام الشافعى - [حيث يقول (٦٣) ما نصه : « وأكره أن يبنى على القبر مسجد ، وأن يسوى ، أو يصلى عليه ، وهو غير مسوى - يعنى أنه ظاهر معروف - أو يصلى اليه .. قال : وان صلى اليه أجره وقد أساء ، أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قال : وأكره هذا للسنة والآثار ، وأنه كره - والله تعالى أعلم - أن يعظم أحد من المسلمين ، يعنى يتخذ قبره مسجداً ، ولم يؤمن فى ذلك الفتنة والضلال على ما يأتى بعده »] - ثم قال المؤلف المشار اليه : « فالعلة المذكورة قد انتفت برسوخ الايمان فى نفوس المؤمنين ، ونشأهم على التوحيد الخالص ، واعتقاد نفى الشريك مع الله تعالى ، وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والايجاد والتصريف .. وبانتفاء العلة ينتفى الحكم المترتب عليها ، وهو كراهة اتخاذ المساجد والقباب على قبور الأولياء والصالحين » !! (٦٤)

(٦٣) فى كتابه « الأم » .

(٦٤) احياء القبور من أدلة بناء المساجد والقباب على القبور ، لأحمد الصديق الغمارى - ص ١٧ ، ١٩ (مشار اليه بهامش « تحذير المساجد » للألبانى .

يقول الألبانى : « والجواب : أن يقال أثبت العرش ثم انقش !! .. أثبت أولاً أن الخشية المذكورة هي وحدها علة النهي ، ثم أثبت أنها قد انتفتت ، ودون ذلك خرط القتاد .

« أما الأول : فإنه لا دليل مطلقاً على أن العلة هي الخشية المذكورة فقط .. نعم من الممكن أن يقال : إنها بعض العلة ، وأما حصرها فباطل .. لأن من الممكن أيضاً أن يضاف إليها أمور أخرى معقولة كالتشبهه بالنصارى .. وكالاسراف في صرف المال فيما لا فائدة فيه شرعاً .. وغير ذلك مما قد يبدو للباحث الناقد ..

« وأما ما زعمه أن العلة انتفتت بفسوخ الايمان في نفوس المؤمنين .. الخ ، فهو زعم باطل أيضاً وبيانه من وجوه :

« الأول : أن الزعم بنى على أصل باطل ، وهو أن الايمان بأن الله هو المنفرد بالخلق والايجاد كاف في تحقيق الايمان المنجى عند الله تبارك وتعالى .. وليس كذلك .. فان هذا التوحيد وهو المعروف عند العلماء بتوحيد الربوبية ، كان يؤمن به المشركون الذين بعث اليهم رسول الله ﷺ كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » (٦٥) ، ومع ذلك فلم ينفعهم هذا التوحيد شيئاً ، لأنهم كفروا بتوحيد الألوهية والعبادة ، وأنكروه على النبي ﷺ أشد الانكار ، لقولهم فيما حكاه الله عنهم : « أجعل الآلهة لها واحدا ، ان هذا لشيء عجاب » (٦٦) . ومن مقتضيات هذا التوحيد الذي أنكروه ترك الاستغاثة والاستعانة بغير الله ، وترك الدعاء والذبح لغير الله ، وغير ذلك مما هو خاص بالله تعالى من العبادات .. فمن جعل شيئاً من ذلك لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك به ، وجعل له ندا ، وان شهد له بتوحيد الربوبية ، فالإيمان المنجى إنما هو الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وافراد الله بذلك ..

« فإذا تبين هذا ، تعلم أن الايمان الصحيح غير راسخ في نفوس كثير من المؤمنين بتوحيد الربوبية » ..

ويسوق فضيلة الشيخ الألبانى الدليل على كلامه من أقوال الصوفية أنفسهم فينتقل عن مؤلف كتاب « احياء القبور » قوله : « ونراهم - يعنى العامة - يحلفون بالأولياء ، وينطقون فى حقهم بما ظاهره الكفر الصراح بل هو الكفر حقيقة بلا ريب ولا شك .. فكثير من جهلة العوام بالمغرب ينطق بما هو كفر صراح فى حق مولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، فان عندنا بالمغرب من يقول عن القطب الأكبر ، مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه : أنه الذى خلق الدين والدنيا ! .. ومنهم من قال - والمطر نازل بشدة - : يامولانا عبد السلام اللطف بعبادك ! .. فهذا كفر » !! (٦٧)

ثم يقول الشيخ الألبانى : « قلت : فهذا الكفر أشد من كفر المشركين ، لأن هذا فيه التصريح بالشرك فى توحيد الربوبية أيضا ، وهو مما لا نعلم أنه وقع من المشركين أنفسهم ! .. وأما الشرك فى الألوهية فهو أكثر فى جهال هذه الأمة - ولا أقول عوامهم - فإذا كان هذا حال المسلمين اليوم ، وقبل اليوم ، فكيف يقول هذا الرجل : « وقد انتفت العلة برسوخ الايمان فى نفوس المؤمنين » ؟ !

« واذا كان يريد بـ « المؤمنين » الصحابة رضى الله عنهم .. فلا شك أنهم كانوا مؤمنين حقا .. عالمين بحقيقة التوحيد الذى جاءهم به رسول الله ﷺ ، ولكن الشريعة الاسلامية شريعة عامة أبدية ، فلا يلزم من انتفاء العلة - لو ثبت - بالنسبة اليهم أن ينتفى الحكم بالنسبة لمن بعدهم ، لأن العلة لا تزال قائمة ، والواقع أصدق شاهد على ذلك ..

« الوجه الثانى : علمت مما سبق من الأحاديث .. أن النبى ﷺ حذر أمته من اتخاذ المساجد على القبور فى آخر حياته .. بل فى مرض موته .. فمتى زالت العلة التى ذكرها ؟ ..

« ان قيل : زالت عقب وفاته ﷺ ، فهذا نقض لما عليه جميع

المسلمين أن خير الناس قرنه ﷺ ، لأن القول بذلك يستلزم — بناء على ما سبق من كلامه — أن الايمان لم يكن قد رسخ بعد فى نفوس الصحابة رضى الله عنهم ، وانما رسخ بعد وفاته ﷺ ! • ولذلك لم تزل العلة وبقي الحكم •• وهذا مما لا أتصور أحدا يقول به لوضوح بطلانه ••

« وان قيل : زالت قبل وفاته ﷺ ، قلنا : وكيف ذلك وهو ﷺ انما نهى عن ذلك فى آخر نفس من حياته ﷺ ؟ ! •• ويؤيده :

« الوجه الثالث : أن فى بعض الأحاديث المتقدمة باستمرار الحكم الى قيام الساعة [كالحديث الذى رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد »] (٦٨) •

« الوجه الرابع : أن الصحابة رضى الله عنهم انما دفنوه فى حجرته ﷺ خشية أن يتخذ قبره مسجدا •• كما تقدم عن عائشة رضى الله عنها [فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم قالت : ان رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه طرف خميسة (٦٩) له ، فاذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » •• تقول عائشة : « يحذر مثل الذى صنعوه » — يقول ابن حجر : « وكأنه ﷺ علم أنه مرتحل من ذلك المرض فخاف أن يعظم قبره كما فعل من مضى ، فلعن اليهود والنصارى اشارة الى ذم من يفعل فعلهم » [•

يقول الألبانى : « فهذه الخشية اما أن يقال : انها كانت منصبية على الصحابة أنفسهم ، أو على من بعدهم •• فان قيل بالأول ، قلنا : فالخشية على من بعدهم أولى ، وان قيل بالتانى — وهو الصواب عندنا — فهو دليل قاطع على أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا لا يرون

(٦٨) رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، وابن حبان ، وابن أبى شيبة فى المصنف ، وأحمد ، والطبرانى وأبو يعلى وأبو نعيم .

(٦٩) شرب خز أو صوف معلم كما فى النهاية .

زوال العلة المستلزم زاول الحكم ، لا فى عصرهم ، ولا فيما بعدهم ،
فالزعم بخلاف رأيهم ضلال مبين •• ويؤيده :

« الوجه الخامس : أن العمل استمر من السلف على هذا الحكم
ونحوه ، مما يستلزم بقاء العلة السابقة ، وهى خشية الوقوع فى الفتنة
والضلال ، فلو أن العلة المشار إليها كانت منتفية لما استمر العمل على
معلولها •• وهذا بين لا يخفى والحمد لله ، واليك بعض الأمثلة
على ما ذكرنا ••• » (٧٠) اهـ

وبعد أن يسوق فضيلته بعض الأمثلة من فعل السلف الصالح ••
يقول :

« واعلم أن هذه الآثار ، وان اختلفت دلالاتها •• فهى متفقتة
على النهى فى الجملة عن كل ما ينبئ عن تعظيم القبور تعظيماً يخشى منه
الوقوع فى الفتنة والضلال ، مثل بناء المساجد والقباب على القبور
وضرب الخيام عليها ، ورفعها أكثر من الحد المشروع ، والسفر
والاختلاف إليها (٧١) ، والتمسح بها ، ومثل التبرك بآثار الأنبياء
ونحو ذلك ••

« فهذه الأمور كلها غير مشروعة عند السلف الذين سميناها من
الصحابة وغيرهم •• وذلك يدل على أنهم كانوا جميعاً يرون بقاء علة
النهى عن بناء المساجد على القبور وتعظيمها بما لم يشرع ، ألا وهى
خشية الضلال والافتتان بالموتى — كما نص عليها الشافعى رحمه الله
فيما سبق — بدليل استمرارهم على القول بالحكم المعلول بهذه العلة ،
فإن بقاء أحدهما يستلزم بقاء الآخر ، كما لا يخفى ، وهذا بالنسبة
لأن نص منهم على كراهة بناء المساجد على القبور ظاهر ••

أما الذين صرحوا بالنهى عن غير ذلك ، مثل رفع القبر وضرب

(٧٠) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد — مرجع سابق —

ص ١٢٠ — ١٢٩ بتصريف .

(٧١) أى الكثار التردد لزيارتها .

الخيمة عليه ونحوه — مما أجملنا الكلام عليه آنفا — فهم يقولون ببقاء الحكم المذكور من باب أولى ، وذلك لوجهين :

« الأول : أن بناء المساجد على القبور أشد جرما من رفع القبور وضرب الخيام عليها ، لما ورد من اللعن على البناء ، دون الرفع والضرب المذكور .

« والثانى : أن المفروض فى أولئك السلف الفهم والعلم ، فاذا ثبت عن أحد منهم النهى عن شىء هو دون ما نهى عنه الشارع ، ولم ينقل هذا النهى عن أحدهم ، فنحن نقطع بأنه ينهى عنه أيضا ، حتى ولو فرض عدم بلوغ النهى إليه لأن نهيه عما هو دون هذا يستلزم النهى عنه من باب أولى ، كما لا يخفى .

فثبت أن القول بانتفاء العلة المذكورة ، وما بنى عليه كله ، باطل .. لمخالفته نهج السلف الصالح رضى الله عنهم ، مع مصادمته للأحاديث الصحيحة ، والله المستعان « (٧٢) ا هـ

ونقول : لعل ذلك البعض الذى يزعم بأن المنع من اتخاذ القبور مساجد « إنما كان لعدة خشية الافتتان بالقبور ، ثم زالت برسوخ التوحيد فى قلوب المؤمنين » .. لعل ذلك البعض تد وجد الرد على زعمه فيما نقلناه عن الشيخ ناصر الدين الألبانى — جزاه الله عن الاسلام خيرا ..

● بدعة الموالد :

من البدع المرذولة التى نهى عنها الرسول ﷺ : اتخاذ مقابر الأولياء والصالحين موسما وعيدا ، ومبيتا وملعبا للأطفال ، وسوقا للبيع والشراء فى عطلات الأسبوع « الجمعة » .. وفى المواسم كطلعة رجب والأعياد .. بل تجد عند أضرحة أهل بيت الرسول ﷺ — إذا صح

(٧٢) المرجع السابق ص ١٤٤ — ١٤٦

(١٩ — الله توحيد)

وجودهم بها - تجدد الناس وقد أسموها حرماً ، وقد جعلوا لكل ولى
ليلة غيرها تقام حضرته !!

أضف الى ذلك تبرج النسوة والصخب والشرك بسؤال الموتى
ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى .. والاختلاط والخلووة المحرمة فى مواطن
العبرة والخشية والرعدة من رهبة الموت !!

ويقول بعض الصالحين : « اذا رأيتم أحداً يأكل عند المقابر
أو يضحك ، فاعلموا أنه مطموس القلب ، بعيد عن رحمة الله ..
لأنه عبث فى موطن الخوف » ..

وقد روى غير واحد حديث : « ان الله يكره لكم ثلاث : العيب
فى الصلاة ، وانرفث فى الصيام ، والضحك عند المقابر » ..
* * *

● مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاحتفال به :

يقول الدكتور عزت عطية : « لا خلاف بين العلماء فى أن الاحتفال
بيوم المولد عمل محدث ، لم يعهد فى عصر الرسول ﷺ ولا فى عصر
أصحابه أو التابعين لهم باحسان ، قال السخاوى : « ان عمل المولد
حدث بعد القرون الثلاثة » ..

وأول من أحدثه بالقاهرة « المعز لدين الله الفاطمى » سنة ٣٦٢ هـ ،
ودام الاحتفال الى أن أبطله الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى
سنة ٤٨٨ هـ فى عهد « المستعلى بالله » ، ولما ولى الخلافة « الأمر
بأحكام الله » ابن المستعلى أعاد الاحتفال فى سنة ٤٩٥ هـ .

وأول من أحدث هذا الاحتفال بـ « اربل » الملك المظفر أبو سعيد ،
فى القرن السادس أو السابع ، وألف له الحافظ أبو خطاب عمر بن
الحسن المعروف بابن دحية الكلبى سنة ٦٤٤ هـ كتاباً سماه « التنوير فى
مولد البشير النذير » حسن فيه الاحتفال وأقام على ذلك وجوه
الاستدلال ..

وهكذا وجد الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة ، وتطورت مظاهره
حتى وصلت الى ما هي عليه الآن ..

وقد اختلف موقف العلماء فى الاحتفال بيوم المولد ، فالبعض أجرى عليه أدلة ذم البدع باعتبار حدوثة وترك النبى ﷺ ومن بعده من السلف له .. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى : لأنه تخصيص بغير مخصص ، وقد ورد النهى عن مثله ، فقد نهى النبى ﷺ تخصيص يوم الجمعة بصيام ، وأولا أن المفسدة انما تنشأ من تخصيص ما لا خصوصية له - كما فى الاحتفال بالمولد - لما نهى عنه ، فان الناس انما يخصون هذا اليوم بالاحتفال لاعتقادهم فيه فضيلة تقتضى ذلك ولا فضيلة فيه ، فأقل أحوال هذا الاحتفال - فى نظر الشرع - أن يكون مكروها ..

على أن الواجب على الناس فى نظرهم الى الأيام من ناحية التشريف والتكريم ، وتخصيص بعضها بالعبادة أو الاحتفال به دون البعض الآخر اتباع الكتاب والسنة ، وان لم يدركوا ما فى ذلك من المصلحة أو المفسدة « (٧٣) ..

ومن أشهر هؤلاء المانعين : تاج الدين عمر بن على اللخمي السكندرى المالكى المعروف بالفاكهانى .. الذى رد هذا الاحتفال وقال بمنعه ، لأنه لا يعلم له أصلا فى كتاب ولا سنة ، ولا نقل عن أحد من علماء الدين ، وانتهى بذلك الى الحكم أن الرجل اذا احتفل بالمولد من عين ماله لأهله وأصحابه وعياله لا يتجاوز فى ذلك الاجتماع على أكل الطعام ، ولا يقترفون شيئا من الآثام .. كان هذا الاحتفال بدعة مكروهة وشفاعة مذمومة ، لأنه محدث لا أساس له من الشريعة ، فاذا ما ضم الاحتفال الى ذلك اجتماعا بين غرباء ، واقتضى بذل المال أو نحوه كرها أو على استحياء .. وصاحبه شئ من الفتن كالطبول والدفوف ، واجتماع الرجال مع النساء ، أو نحو ذلك ، فلا خلاف فى حرمة ..

والفاكهانى يوافق فيما ذكره ابن تيمية والشاطبى ومن نحا نحوهما

(٧٣) البدعة : تحديدها وموقف الاسلام منها - مرجع سابق ،

ممن يرى أن ما تركه الرسول ﷺ مع قيام المقتضى له لا يجوز احداثه من البدع ، والمولد عنده من هذا القبيل (٧٤) .

وفى مقابل هذا الاتجاه .. هناك اتجاه آخر يرى اباحة هذا الاحتفال ، بل ويحبذ القيام به ويستحسنه ، ويمثل هذا الاتجاه السيوطي .. حيث يرى أن ما حكم الفاكهاني بكراهته ليس كما قال ، بل هو من الاحسان الذي لم يعمد في العصر الأول ، فان اطعمم الطعام الخالي من اقتراء الآثام من البدع المندوبة كما صرح بذلك العز بن عبد السلام في قواعده ..

وأما ما وصفه الفاكهاني بأنه حرام فحرمته ليست لنفس الاحتفال باليوم وتعظيمه واطهار شعار المولد ، وانما لما انضم اليه ، ولو وقع بعض هذه الأمور في الاجتماع اصلاة الجمعة لكان قبيحا شنيعا .. ولا يلزم من ذلك ذم أصل الاجتماع لصلاتها كما هو واضح (٧٥) ..

ويرى ابن حجر .. أن الاحتفال بالمولد بدعة اشتملت على محاسن وضدها .. فمن تحرى في عمله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة والا فلا (٧٦) ..

أما ابن الحاج .. فقد كان موافقا في توصله الى دليل على تخصيص هذا اليوم باستحباب عبادة خاصة فيه ، اظهارا للسور بالمولد ، وشكرا لله على ما أكرم به من هذا الميلاد ، ألا وهو تعليق الرسول ﷺ استحباب صوم يوم الاثنين بقوله : « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو أنزل على فيه » (٧٧) .. وبهذا الاستدلال رد القول بأن هذا الاحتفال تخصيص لهذا اليوم بغير مخصص .. حيث ثبت لهذا التخصيص أصل من السنة .. أما عن القول بحدوث هذا الاحتفال وترك الرسول ﷺ ومن بعده من السلف له فذاك راجع — فيما يرى ابن الحاج — الى رحمة

(٧٤) المرجع السابق ص ٤٨٢ ، ٤٨٣

(٧٥) المرجع نفسه ص ٤٨٣ (٧٦) نفس المرجع ص ٤٨٣

(٧٧) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٨ ص ٥٢

النبي ﷺ بأمته ، ورفقه بهم حيث كان يترك العمل خشية أن يفرض على أمته (٧٨) ..

ونحن - نتفق مع الدكتور عزت - في جواز الاحتفال بيوم المولد في صورة شخصية أو أسرية بل في استحباب هذا الاحتفال .. فليس الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة من البدع ، لأنه لم يقترن به ادعاء ورود الشرع به ، أو حثه على هذا التخصيص ، أو نسبة ما ليس من الشرع في هذا المجال إليه ..

وعلى ذلك - كما يقول الدكتور عزت - « فهذا الاحتفال ليس مما تحقق فيه تعريف البدعة على أى اتجاه من الاتجاهات في تعريف البدعة لثبوت أصله من السنة وتوارد الأدلة المؤيدة لوقوعه .. »
« أما عما يعمل فيه ، أو كيفية ممارسته ، فذلك مشروط بأن يقتصر فيه على ما يفيد الشكر لله تعالى ، من التلاوة ، والإطعام ، والصدقة ، وإنشاء شيء من الأشعار في المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب الى فعل الخير والعمل للأخرة .. وهذا مقيد بأن لا يشغل عن فرض أو يعطل عن طاعة أو يسوق الى ارهاق من كثرة السهر .. لأن الغرض تحصيل السرور عن طريق مشروع ، وإظهار الشكر لله تعالى على أى وجهه .. »

« أما كشف العورات ، والاختلاط الذرى ، والألعاب الملهية المشتملة على فنون النصب والاحتفال .. فيجب تجريد ذكرى المولد من كل ذلك على أى حال » (٧٩) .

ويصف لنا الجبرتي الفساد الذى كان يحدث على عهده في الموالد .. فيقول في وصفه لمولد العفيفى : « ينصبون خياما كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاوى ، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس ، وخواصهم وعوامهم ، وفلاحى الأرياف وأرباب المسلاهى والملاييب ، والغوازى

(٧٨) البدعة ، ص ٤٨٥

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٤٨٧ ، ٤٨٨

والبغايا والفرادين والحواة ، غيملاون الصحراء والبستان ، فيطئون القبور ، ويتعوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ، ويضربون بالطبول والزمر ليلًا ونهارًا . . . ويجتمع لذلك الفقهاء والعلماء ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامّة من غير انكار ، بل يعتقدون أن ذلك قرينة وعبادة ، ولو لم يكن ذلك لأنكره العلماء ، فضلًا عن كونهم يفعلونه ، فالله يتولى هدايتنا أجمعين « (٨) .

ويقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل : « ودعوى حبهيم — أى الصوفية — للمرسول وآل بيته دعوى الرجس أنه قداسة ، والاثم الكبير أنه روحانية فضيلة !! وكتك الفرية افتراء الشيعة أنهم أحباء آل بيت محمد — ﷺ — أتري الشيعة والصوفية : اتبعوا الرسول وجعلوه وحده الأسوة والقدوة الحسنة ؟ !

« ما ثم ما يحتجون به لدعواهم سوى العكوف على الأضرحة الذنيمة المفتراة لآل البيت ! سوى تلك القباب التي شيدها معبودة على عظام نخرة . . . لا تدري أهى لحيوان أم انسان ، أم هى أمشاج من عظام شتى ، لا تدري أهى لصالح أم طالح ، لمسلم أم يهودى . . . فقد شيدها الفاطمية فى مصر ، لتصرف الناس عن حج بيت الله ، وتجعل قنوب المسلمين نفسها قبورا خربة . . . ثم سمتها بأسماء آل البيت ، وأقامت على سدانتها وعبادتها الصوفية !

« ما لهم من دليل على حبهيم لآل البيت سوى عبادة تلك الأصنام بتقبيل أستارها وأحجارها ولثم نحاسها وخشبها ، وتعطير أجوائها والاستشفاع بأعتابها ، واقتراف الأعياد الوثنية فى كل موسم لها . . . « وسل الآمين تلك « الموالد » عن عريضة الشيطان فى باحاتها ، وعن الاثم المهتوك فى حاناتها وعن حمم الشهوات التي تتفجر تحت سود ليلاتها !!

« وهكذا تكذ الصوفية فى سبيل أن تجعل دنيا المسلمين كلها مقبرة ، قفراء الا من الوحشة ، جرداء الا من الرهبة والفرع ، خاوية الا من خطايا تقترف باسم الاسلام !

« تكذب في سبيل أن تجعل نفوس المسلمين مقابر .. وغايتهم المقابر .. وآلهتهم العظام البوالى فى المقابر ! ، وتحث المسلمين ليجعلوا الحياة كلها قربانا الى غيابات العدم ، وجيف المقابر ! »
« فما ينقضى فى مصر أسبوع ، الا وتحشد الصوفية أساطير شركها ، وعباد أوثانها عند مقبرة يسبحون بحمد جيفتها ، ويسجدون أذلاء لرمتها .. ويقتربون خطايا الجوسية فى حمايتها ، ويحتسون آثام الخمر والحشيش ، والأجساد التى طرحها الليل على الاثم فجورا ومعصية !! ويسموننا للناس : « موالد » أو مواسم عبر وذكريات خوالد ! »
« وما تجتمع جماعة صوفية أو تنفض .. الا ليبحثوا كيف يحتفون بصنم قبر ، أو رمة قبر !! وما يهوم ليل على صوفى ، أو يفزعه بالنور نهار ، الا وقلبه مستعبد بهوى صنم قبر ، أو رمة قبر ! .. وما يتعد صوفى أو يقوم ، أو يركب أو يمشى الا وينعق مستغيثا بصنم قبر ، أو رمة قبر !! »

« قبور .. قبور !! هذه هى دنيا الصوفية ، لها جهاد الصوفية ، ولرممها عبادتها .. ولها تحيا ، ولها تموت ، وبها تعيش !! وخير ما تتمناه الصوفية ، هو أن يهلك المسلمون جميعا ، حتى يكون فى كل ساعة « مولد » مقبرة ، وعيد رمة !! »

« فليقتل المسلمون أنفسهم ليمدوا الصوفية بأعياد كثيرة للقبور ، ونذور للجماجم !! ما لهم من دليل على جبهم للرسول وآل بيته سوى تلك « التواشيح » التى يتغذلون بها فى العيون الحوالم النعس ، والشفاة الظوامىء اللعس ، والأهداب المسبلات فى اغراء على لهب من الورد يتوهج فى الخدود النضر !! »

« تلك هى أدلتهم ، ويالها من أدلة !! ، حياة كلها خطايا ، وقلوب أربابها رمم معبودة ، ونفوس آلهتها جيف ، وأفكار كلها للأساطير ، وحياة ميتة ، ووجود يفزع منه العدم ، ودنيا خمول خامد تعصف بها الذلة ، فأين الكفاح فى سبيل بناء الحياة » ؟ (٨١) .

الحق أن الشيخ عبد الرحمن الوكيل .. كان عنيفا وهو يتحدث عن عبادة القبور وتقديس الموتى ، كان عنيفا وهو ينفذ المفاسد التي يحدثها الناس في الموالد .. ولكن ما الحيلة وهو يدافع عن سنة رسول الله ﷺ .. وما جر الناس الى هذه العقائد الفاسدة الا مخالفتهم لأمره حين اتخذوا فوق القبور المساجد وأوقدوا عليها السرج ؟ !
ويحدثنا فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى عن بدع الموالد فيقول : « من بدع هذه « الموالد » الاطعام ، وتلاوة القرآن ، وما يسمونه بالذكر !! .. وهذه الأتسياء فى الأصل من صالحات الاسلام ، لولا ما صحبها من انحرافات .. فهى مطلوبة فى كل وقت بنية القربى الى الله ، لا بنية المولد المحدث ، الذى لم يكن فى عهد السلف الصالح .

« بل وتجد أصوات مكبرات الصوت تتضارب بالذكر ، فتخرج عن دائرة الخشوع والخضوع ، الى دائرة الصخب والضجيج .. وربما كان لهذه المساجد والمساحات جيران مرضى ، وطلبة يستذكرون ، وأطفال تفرع من هذه الأصوات المنكرة الصادرة من حناجر عملاء الشيطان !!

« ومن المحرمات التى تقع فيها - أى الموالد - إضاعة المال بكثرة الوقود وانارة المصابيح فى المساجد والطرق ، واستهلاك الشموع والمصابيح !!

« ومنها انتهاك حرمة المساجد بتقديرها ، وباللغظ ووجود الأطفال والحفاة الذين ينجسونها حتى يتعذر إقامة الشعائر بها على الوجه المرضى ، ومعلوم أن التشويش فى المساجد حرام ولو بتلاوة القرآن !!
« ومنها تبرج النساء الزائرات للموالد والأضرحة ، مع الاختلاط بالرجال ، وما يحدث من فجور ونشئل ومعارك فى تلك الليالى فى الساحة وما حولها !!

« ومنها استعمال آلات اللهو والأغانى الخليعة ، والمحدث يقول :
« من استمع الى قينة صب فى أذنه الآنك يوم القيامة » - أى الرصاص المذاب !!

« والتقرب .. يجب أن يكون لله تعالى ، وأن يكون بالحلال ..
وأولياء الله الصالحون ينفرون من المعصية .. فأين هذا الصخب
والعبث من عمل الولي ؟ .. وهل كان هو على تلك الحال فى حياته ؟ !
ان من أراد أن يتقرب من انسان ، تقرب اليه بما يجب أن يفعل حال
حياته .. وقد وصف الله تعالى أولياءه بأنهم : « الذين آمنوا وكانوا
يتقون » (٨٢) — أى جمعوا بين حسن الاعتقاد وصلاح العمل ..
« ومن بدع الموالد : المترجيع فى القرآن كالطرب ، مع شرب
« الجوزة » و « الشيشة » !!

« ومنها الرياء بالانفاق الزائد ، والتنافس بين الأغنياء للمباهاة ،
وتعطيل الناس عن أعمالهم — وخاصة من يفدون من الريف — فضلا
عما يتكبدون من مال هم أحوج ما يكونون اليه ، بالاضافة الى ما يحدثونه
من أزمات خانقة فى المواصلات والطعام وما يحدث لهم من كوارث !!
« ومنها : حلقات الذكر المحرف ، وفيها المنشدون الذين يتنون
المال والشهرة ، ولا يبتغون رضوان الله .. كما يوجد فيها الصارخون
فى المساجد ، والمصفقون ، والمصفرون ، والراقصون المائلون المليون !!
« كما تجد فى الطرق المؤدية الى الموالد من يقرأون القرآن على
قارعة الطريق ، وفى الحوانيت لاجتلاب الزبائن ، وعلى الكبارى
وأبواب الأنفاق ، يستجدون بالقرآن عطف الناس ، فأرخصوا ما أعلى
الله ، وحرقوا ما عظم من منهج الحياة ودستور الوجود : كتاب الله !!
« وفيها — أى الموالد — تعطيل للمعاملين — عمالا وفلاحين وطلبة —
عن أداء واجباتهم بما فيها من افراط فى السهر والسفر ، وحملهم على
التكلف بشراء ما يلزم من الشهوات — وقد يكون الكثير من رواد هذه
الموالد ممن لا يركع لله ركعة !!

« وفيها : شد الرحال الى غير المساجد الثلاثة بمكة والمدينة
والقدس .. حيث قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة

مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » ••
« ولو لم يكن في الموالد الا اتخاذ القبور عيداً للذبائح والقربان
والنذور — كفعل المشركين عند أوثانهم — لكفى بذلك تحريماً ••
« علاوة على ما يحدث في هذه الموالد من توسل لغير الله ،
وسؤال واستعانة بما سواه ، وشرك لا يحصى — مع أن منع المفسد
مقدم على جلب المصالح — وما دام المسلم لا يستطيع أن يزيل هذه
المنكرات ، فليتعد عن شهودها حتى لا تصيبه اللعنة ••
« ويقول تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض
عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، واما ينسبك الشيطان فلا تقعد
بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (٨٢) •

[أى اذا رأيت المشركين الذين يخوضون في آيات الله بالاستهزاء
والتكذيب ، فلا تجلس معهم حتى يأخذوا في حديث آخر ، غير الاستهزاء
بآيات الله وأحكامه ، وان أنسك الشيطان النهى عن الجلوس معهم ،
ثم ذكرت ذلك النهى ، فلا تقعد بعد التذكر معهم] •
« ويقول جل شأنه : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم
آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في
حديث غيره ، انكم انم مثلهم » (٨٤) •

[أى أنزل الله عليكم في القرآن العظيم : بأنه اذا سمعتم من
يسخر ويهزأ بآيات القرآن ، فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا حديثاً
غيره ، فانكم ان جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها ، فانكم
مثلهم في ارتكابكم معصية الله ومخالفتكم أمره] •

« فثبت بالآيتين •• أن كل من حضر المعصية — حتى ولو لم
يفعلها — فهو شريك لفاعلها » ••

ثم يقول فضيلته : « والعجب •• أنهم جمعوا جميع موالد من
يسمونهم أولياء تبعاً •• فلا يكاد ينفذ السامر عن مولد الا استأنفوا

الرحيل لغيره .. وكم فى ذلك من أزمة للمواصلات ، وأزمة للطعام ، وكثرة النشالين ، وأحداث الفجور .. فضلا عن خرافات مضلات للعتيدة والعبادة والأخلاق» (٨٥) .

* * *

● النذر لغير الله .. من الشرك :

النذر .. عبادة وقربة .. والعبادة لا يجوز أن توجه إلا الى الله تعالى .. يقول سبحانه : « وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار » (٨٦) .. والمراد بالظالمين فى الآية : المشركون ، فإن الشرك ظلم عظيم ، ومن قصد بالعبادة غير الله تعالى فقد أشرك . وعلى هذا فالنذر لغير الله تعالى ، كالنذر للقبور وأصحابها من الشرك ..

ويقول بعض العلماء (٨٧) : « النذر الذى ينذر له أكثر العوام — على ما هو مشاهد بيننا — كأن يكون للإنسان غائب أو مريض ، أو له حاجة .. فيأتى الى مقبرة بعض الصالحين ويقول : ياسيدى فلان ، ان رد الله غائبى ، أو عوفى مريضى ، أو قضيت حاجتى فلك من الذهب كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الشمع والزيت كذا .. فهذا النذر باطل ، بالاجماع .. وهو حرام لعال ثلاث :

(ا) أن النذر عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله وحده ..

(ب) أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك شيئا إلا ما قدم ،

فلا يصح أن يوجه اليه نذر يملكه بعد وفاته ..

(ج) اعتقاد الناذر أن تلميت قدرة على التصرف فى الكون من

دون الله ، فهذا كفر والعياذ بالله ..

ثم يقول : « اذا علمت هذا .. فما يؤخذ من الدراهم والشمع

والزيت وغيرها ، وينتقل الى ضرائح الأولياء تقربا اليهم فحرام باجماع

(٨٥) هذه دعوتنا ، مرجع سابق ، ص ٢٢٠ — ٢٢٤ بتصرف .

(٨٦) البقرة : ٢٧٠

(٨٧) كالدكتور يوسف الترضاوى ، والشيخ عبد اللطيف مشتهرى

جزاهما الله عن الاسلام خيرا ..

المسلمين .. وإذا كان هذا النذر حراما ، فلا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز لثلاثة أدلة :

أولها : أنه جاء على غير أمر النبي ﷺ وقد قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ..

وثانيها : أنه نذر لغير الله ، فهو شرك .. والشرك لا حرمة له ، فهو مثل الحلف بالمخلوقات لا يجب الوفاء به ولا كفارة فيه ، وليس فيه الا الاستغفار كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية ..

الثالث : أنه نذر معصية ، وقد بينت السنة أن كل نذر اشتمل على معصية أو شرك ، لا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز الوفاء به .. ففى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا : « من نذر أن يطيعه فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ..

وفيما صح من حديث : « النذر لا يأتى بخير ، وإنما يسخرج الله به من البخيل » .. فهو ابتداءً غير مرغوب فيه .. ولكن إذا حدث على الوجه الشرعى دون شرك ، وكان نذر طاعة لله ، وجب الوفاء به » (٨٨) ..

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى : « من الشرك تقديم القرابين وذبح الذبائح لغير الله تعالى ..

» فقد جرت عادة المشركين فى كل أمة ، أن يتقربوا بذبائحهم الى آلهتهم وأصنامهم .. فأبطل الاسلام ذلك وحرم : « ما أهل لغير

الله به » (٨٩) - أى ما ذكر عليه اسم غير الله من صنم أو نحوه ، « وما ذبح على النصب » (٩٠) - أى ما نصب من حجر أو شجر أو صنم

ليعبد ، أو يعظم أو يتبرك به .. وأمر أن يكون الذبح لله وحده ، ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يجعل صلاته ونحره لله : « فصل لربك وانحر » (٩١) . وأن يعلن فى المشركين

(٨٨) انظر « حقيقة التوحيد » للدكتور يوسف القرضاوى ، و « هذه دعوتنا » للشيخ عبد اللطيف مشتهرى ..

(٨٩) المائدة ٣ ، بلفظ « وما أهل ... » ..

(٩٠) المائدة : ٣ (٩١) الكوثر : ٢

أن هديه مخالف لهم فى صلاته ونسكه : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين • لا شريك له ، وبذلك أمرت » (٩٢) — والنسك هو الذبح بقصد التبرك ••

« وعن على رضى الله عنه قال : حدثنى رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « نعن الله من ذبح لغير الله •• لعن الله من لعن والديه •• لعن الله من آوى محدثا (٩٣) •• لعن الله من غير منار الأرض » (٩٤) ••

« وعن طارق بن شهاب ، أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب » — أى بسبب ذباب (!!) — قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : « مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب اليه شيئا ، فقالوا لأحدهما : قرب ، قال : ليس عندى شيء أقرب ، قالوا له : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذبابا فخاوا سبيله فدخل النار •• وقالوا للآخر : قرب ، فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » (٩٥) ••

« أثنى النبى ﷺ على هذا الرجل المؤمن ، وأخبر عن دخوله الجنة لأنه صبر على القتل ولم يرض بتقديم أى شيء لغير الله عز وجل ، لأن القضية قضية قبل أى شيء •• ومن قبل أن يقدم لغير الله ذبابا ، أوشك أن يقدم بعد ذلك جملا » (٩٦) !!

من هذا يتبين لنا أن من نذر لغير الله ، ولو بأهون الأشياء — وهل أهون من الذباب ؟ ! — فقد أشرك •• لأنه قصد بالنذر — وهو عبادة — غير الله ، فكأنه أشرك فى عبادته لله الها آخر ••

(٩٢) الأنعام : ١٦٢ : ١٦٣

(٩٣) أى : حمى مجرما يستحق العقاب بأن تستقر عليه أو ناصره بنفوذه وسلطانه .

(٩٤) أى : معالم الأرض وحدودها ليدخل فى ملكه ما ليس من حقه ، والحديث رواه مسلم . (٩٥) رواه أحمد .

(٩٦) حقيقة التوحيد ، للدكتور يوسف القرضاوى ، ص ٥٨ — ٦٠

● الى أين تذهب أموال النذور ؟

لا يخلو ضريح فى أى مسجد من صندوق للنذور يوضع الى جوار الضريح .. وكأنما يدعو الشرك بعضه بعضا !! .. اذ تنتهى — عادة — مناسك الطواف التى ابتدعها عباد القبور بايداع بعض الحلى أو الأموال فى ذلك الصندوق .. واهمين أنهم بذلك الفعل يفوزون بالقربى من الله ، وينالون بركة ساكن الضريح .. وبهذا تقضى لهم الحوائج ، وترفع عنهم الكربات .. بعد أن أدوا ما افترضوه على أنفسهم من طواف بالقبور ، والتماس لبركة ساكنه ، واستشفاع بالقبور فيه ، وتقديم النذور والقرايين اليه .. وعلى ساكن الضريح أن يؤدى بعد هذه المناسك ما هو مطلوب منه !! وما درى الضالون أنهم بعقيدتهم الزائغة تلك ، قد خسروا الدنيا والآخرة !!

ويحق لكل منا .. أن يوجه سؤالاً منطقياً الى نفسه : الى أين تذهب حصيلة هذه الأموال التى تتجمع فى صناديق النذور ؟ .. فما دام مطلوباً منا أن ندفع .. فان من حقنا أن نسأل !! هل تصرف هذه الأموال على عمارة المساجد التى جمعت منها وتتفق على صيانتها ؟ ؟

هل تصرف فى مصارف الزكاة التى افترضها الله تعالى على الناس .. فتؤدى الى الفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ؟ ؟ هل تصرف فى مصارف الصدقة التى حددها الشارع سبحانه .. فتؤدى الى ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ؟ ؟

هل تؤول الى خزانة الدولة ، فتضاف الى مواردها ليصرف منها على المشاريع العامة كانشاء المدارس وبناء المستشفيات والملاجئ ، وتعبيد الطرق وحماية الجسور ، وتسليح الجيوش ، وسداد الديون .. الخ ، وبهذا يعود خيرها على المجتمع كله ؟ ؟

لو كان الأمر يؤول الى واحد من هذه الأمور ، لأيدنا ذلك الأمر ،
ولقدمنا الأموال بنفس سخية ابتغاء مرضاة الله ورضوانه !!

ويشاء الله تعالى .. ألا تطول بنا هذه التساؤلات ، فبأئتنا الرد
شافيا حين طلعتنا احدى صحف الصباح^(٩٧) تحت عناوين مثيرة تقول :
« مفاجأة غريبة يكشف عنها طلب الاحاطة بالمجلس الشعبى للغربية -
آين تذهب ندور السيد البدوى التى تزيد عن مايون جنيهه - كل خليفة
حصل على ٥٤ ألف جنيه ، وحامل مفتاح المقصورة تتقاضى ٣٦ ألفا ،
ورئيس الخدم ١٢ ألفا فى العام الماضى » !!

ثم تقول الصحيفة : « على امتداد أكثر من ثلاث ساعات ..
شهدت قاعة المجلس الشعبى لمحافظة الغربية مناقشة غريبة ، ومفاجآت

أغرب ، حول طلب الاحاطة الذى تقدم به عدد من أعضاء المجلس ،
بشأن حصيلة صناديق الندور بمساجد المحافظة ، والطريقة التى توزع
بها ندور مسجد سيدى أحمد البدوى بطنطا ..

« ولقد كشفت المناقشات .. عن أن الحصيلة النقدية لصندوق
هذا المسجد فى العام الماضى [١٩٨٤] بلغت مليوناً و ٢٠٠ ألف جنيه ،
وأن الندور العينية فى حدود هذا المبلغ .. بينما كانت حصيلة صناديق
الندور الأخرى - وعددها ٢٢ صندوقاً على مستوى المحافظة -
٥٠ ألف جنيه (!!)

« والغريب فى الأمر .. أنه لا يعود على الدولة من صندوق ندور
المسجد الأحمدى سوى ٣٩٪ فقط من جملة الندور النقدية .. وذلك
طبقاً للقرار الوزارى المحدد لنسب التوزيع .. أما الجزء الأكبر من
الندور فقد استأثر به عدد محدود من الأفراد (!!)

« وجميع المبالغ التى يحصلون عليها معفاة من الضرائب (!!) ..
فما هى الحكاية ؟

(٩٧) انظر جريدة الاهرام القاهرية ، العدد ٣٥٨١٩ ، الصادر
صبيحة الأحد ١٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٥ هـ (٦ يناير سنة ١٩٨٥ م) .

وتستطرد الصحيفة فتقول : الحكاية بدأت عندما تقدم عدد من أعضاء المجلس الشعبي للمحافظة بطلب احاطة .. وكان موضوع طلب الاحاطة هو معرفة إيرادات صناديق الذور بمساجد المحافظة ، والطريقة المتبعة فى توزيع حصيلة صندوق نذور المسجد الأحمدي على وجه الخصوص ..

« وعندما جاء موعد الجلسة المحددة لمناقشة طلب الاحاطة .. عقد المجلس جلسته برئاسة وكييل المجلس ، وشهدها المحافظ والمستشار ومدير الأوقاف الغربية ..

« ومنذ اللحظة الأولى لبدء المناقشات ، سيطرت الدهشة على جميع الحاضرين .. فقد تقدم مدير الأوقاف ببيان الى المجلس كسّف فيه عن حقائق لم يتوّقعها أى منهم ..

« وقال المدير فى بيانه : ان حصيلة صندوق المسجد الأحمدي بطنطا بلغت فى عام ١٩٨٤ مليوناً و ٢٠٠ ألف من الجنيهات .. بينما كانت حصيلة ٢٢ صندوقاً غيره على مستوى محافظة الغربية ٥٠ ألف جنيه ..

« وفيما يتعلق بطريقة توزيع حصيلة صندوق نذور المسجد الأحمدي .. فان القرار الوزاري رقم ٢٢ لسنة ١٩٧١ قد حدد النسب والجهات والأشخاص المستحقة لهذه النسب ..

« وطبقاً لما يقضى به هذا القرار .. جاء بيان مديرية الأوقاف موضحة كيفية توزيع الحصيلة النقدية للصندوق فى العام الماضى (١٩٨٤) .. وهى كما يلى :

٥٤ ألف جنيه بنسبة ٥/٢٠	« الخليفة الأول
٥٤ ألف جنيه بنسبة ٥/٢٠	« الخليفة الثانى
٣٦ ألف جنيه بنسبة ٣/١٠	« حامل مفتاح القصور
١٨ ألف جنيه بنسبة ٥/١٠	« شيخ المسجد
١٢ ألف جنيه بنسبة ١/٢	« رئيس الخدم

- « الكاتب (ولم تذكر الجريدة عدد الكتبة) ١٢ ألف جنيه بنسبة ١/١٠ »
« المؤذن ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥٠/١٠٠ »
« مقيم الشعائر ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥٠/١٠٠ »
« قارئ السورة ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥٠/١٠٠ »
« خادم الدورة (ولم تذكر عددهم) ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥٠/١٠٠ »
« قراء المقرأة (وعددهم ٢٢ قارئاً) ١٣٢ ألف جنيه بنسبة ٥٠/١٠٠ »

— أما وزارة الأوقاف .. فالنسبة المقررة لها ٣٩/١٠٠ ، وقد بلغ مقدارها ٤٦٨ ألف جنيه « (!!) ثم تقول الصحيفة : « عند ذلك .. ثارت ضجة بالقبعة ، وتوالى تعليقات الحاضرين وهم يتساءلون : كيف يحصل عدد محدود من الأفراد على هذه المبالغ الخيالية ، بينما تحصل الوزارة المسئولة عن جميع مساجد الدولة على ٣٩/١٠٠ من مجموع الإيرادات النقدية لصندوق نذور المسجد الأحمدي ؟ ! .. وأين تذهب النذور العينية ؟ ! اه .. »

هذا ما نشرته — فى حينه — صحيفة الأهرام القاهرية .. ونا أن نتساءل : هل كان واحد منا يتوقع هذه الأرقام الخرافية ؟ !

وهل يستقيم مع العقل ، أن يكون اجمالى مرتب وكيل أول الوزارة — قبل الاستقطاعات — ٢١٠٠ جنيه فى العام ، بينما يحصل رئيس الخدم بالمسجد الأحمدي فى نفس العام على ١٢ ألفاً من الجنيهاً معفاة من الضرائب ؟ !

ثم .. أليس من المفارقات العجيبة — التى تدعو الى الدهشة والذهول — أن يحصل خادم الدورة فى أحد المساجد على ستة آلاف من الجنيهاً سنوياً .. بينما تعاني المساجد الأهلية من قلة عدد الدعاة ومقیمی الشعائر ؟ !

المهم .. نشرت الصحيفة هذه الأمور المذهلة .. ولم يقف السيد وزير الأوقاف — الدكتور الأحمدي أبو النور — ساكناً ازاء هذه الظاهرة الخطيرة .. وقرر على الفور تشكيل لجنة لاعادة النظر فى قرار توزيع

أموال صندوق نذور السيد البدوي وغيرها من الصناديق ، ونخصيص حصة منها — على الأقل — للصرف على أوجه الدعوة الإسلامية ، مع الاحتفاظ بنسبة للعاملين بالمسجد ..

ثم انتقلت مناقشات هذا الموضوع الى مجلس الشعب بناء على طلبات احاطة تقدم بها بعض الأعضاء .. وناقش المجلس المسألة .. ثم انفضت الدورة دون أن ينتهي المجلس الى قرار حاسم فى هذه المشكلة !!

وتمر الأيام .. وتتلقى بعض أجهزة الدولة سطورا قليلة من أحد المواطنين — الذين كانوا على دراية بكل ما يدور حول القضية — ويكشف فى رسالته للمسؤولين عن حكاية جديدة ، يؤكد فيها أن الأشخاص الذين يحصلون على عشرات الألوف من الجنيئات من حصيلة صندوق النذور بالمسجد الأحمدي — اياه — لم يكتفوا بذلك ، بل انهم كانوا يمدون أيديهم لأموال النذور ومعهم جميع أعضاء اللجنة التى تتولى فتح الصندوق وجرد محتوياته !!

وتتحرك جميع الأجهزة المختصة ، ويقوم خبراء الجهاز المركزى للمحاسبات بمراجعة أوراقهم وملفاتهم ، فتأكدوا من صدق هذه المعلومات .. ويقرر الوزير تشكيل لجنة يرأسها وكيل وزارة الأوقاف بالإسكندرية لخصص ما جاء بتقارير الجهاز المركزى !!

ثم تظهر الفضيحة المذهلة التى فاجأتنا بها صحيفة الأهرام القاهرية — صبيحة الأحد ٥ يناير سنة ١٩٨٦ — تحت عناوين مثيرة تقول : « نذور السيد البدوي مليون و ١٤٣ ألف جنيه فى عشرة شهور ، كيف نتركها للعابثين ؟ — الجهاز المركزى يكشف ضياع ٧٥٠ ألف جنيه ، ووزير الأوقاف يحيل المسؤولين الى التحقيق — النيابة تأمر بحبس وكيل وزارة ، وكل أعضاء اللجنة المسؤولة عن جرد الصندوق » (٩٨) ..

(٩٨) انظر جريدة الأهرام القاهرية ، العدد ٣٦١٨٧ ، الصادر صبيحة الأحد ٢٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٦ هـ (٥ يناير سنة ١٩٨٦ م) .

ثم تقول الصحيفة : ان اللجنة التي أمر السيد الوزير بتشكيلها لفحص ما جاء بتقارير الجهاز المركزي قد أعدت تقريرا .. « انتهت فيه الى وجود عجز كبير في حصيله الصندوق منها على سبيل المثال :

— أنه تبين من مراجعة أوراق فتح صندوق النذور يوم ١٦/١١/١٩٨٢ : أن عدد أوراق النقد الموجودة به من فئة الجنيه هي ١٦١٨٠٠ ورقة .. ولكن اللجنة التي قامت بفتح الصندوق حذفت الرقم واحد من اليسار والرقم صفر من اليمين .. وأثبتت أن المبلغ هو ٦١٨٠ جنيها فقط .. أي بفارق ١٥٥٦٢٠ جنيها (!!) .

— كما ثبت من مراجعة أوراق جرد الصندوق نفسه .. أن الصندوق كان بداخله ١٥٥٦٣٠ ورقة من فئة النصف جنيه قيمتها ٧٩٦٥ جنيها ، ولكن اللجنة أثبتت أن المبلغ هو ١٢٥٦٥ جنيها .. أي بفارق ٦٧٠٨٥ جنيها (!!) .

« ومعنى ذلك أن العجز في هذا الصندوق فقط هو ١٦٢٣٢٨ جنيها ونصف الجنيه (!!) .

« ومن هنا كان لا بد من اعادة هؤلاء الناس جميعا الى النيابة .. حيث تولى التحقيق الأستاذ رئيس نيابة الأموال العامة ، وتحت اشراف المحامي العام .. وكشفت التقارير أن جملة المبالغ الضائعة تقدر بـ ٧٥٠ ألف جنيه ، وذلك من خلال مراجعة جرد الصناديق عن أعوام ٨١ ، ٨٢ ، ١٩٨٣ فقط ..

« واتضح للنيابة من خلال تقارير الجهاز المركزي واللجنة التي شكلتها الوزارة .. أن هناك نماذج أخرى لاختلاسات أموال الصندوق منها :

— أن صندوق النذور الذي تم فتحه يوم ٣٠/٢/١٩٨٢ كان بداخله ٢١٦٥ ورقة من فئة الخمسة جنيهات قيمتها ١٠٨٢٥ جنيها ، وقد قيدت بمحضر لجنة فتح الصندوق بمبلغ ٤٣٣٠ جنيها فقط ، أي بفارق ٦٤٩٥ جنيها ، ورغم ذلك لم يتم توريد هذا المبلغ (!!)

« وقد وجهت النيابة تهمة الاختلاس الى كل من وكيل وزارة

الأوقاف بالغربية ، وإمام المسجد ، وخطيبه ، ومندوب محافظة الغربية ، ومدير مديرية الشباب والرياضة بها ، ومندوب المجلس الشعبى المحلى ، ومندوب الدعوة بمديرية أوقاف الغربية . . ثم أمرت بحبسهم جميعا على ذمة التحقيق . . وتكليف اللجان التى تتولى مراجعة عمليات فتح وجرّد الصناديق لمواصلة أعمالها للكشف عن أية اختلاسات أخرى عن عامى ١٩٨٥/٨٤ ، وما قد تكشف عنه اللجان عن أى انحرافات عن الأعيام السابقة قبل عام ١٩٨١ . . .»

ثم تقول الصحيفة : « ومن هنا يدور السؤال . . الى متى التهاون فى الحفاظ على المال العام ؟ . . والى متى التباطؤ فى إصدار القرارات الهامة التى تحفظ للدولة أموالها ، مثل قرار تنظيم صرف القسب التى يمكن تخصيصها من حصيلة صندوق نذور السيد البدوى ؟ » وطالما أنه ثبت لدينا أن صناديق النذور فى المساجد الكبرى ، مثل السيد البدوى ، تدر عائداً كبيراً من الأموال . . فهل من المعقول أن يتم جرد هذه الصناديق بهذه الصورة العادية ؟ . . ولماذا لا يتم الجرد تحت إشراف أخصائين من الجهاز المركزى ، أو من البنوك الكبيرة ، أو مندوبين من وزارة المالية وغيرها من الأجهزة المختصة فى هذا المجال ؟ » . . ا ه . .

* * *

ونقول : هل عرفتم الآن — يا أصحاب النذور — لماذا قال الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » ؟ !

هل عرفتم لماذا قرر الاسلام أن : « من نذر لغير الله فقد أشرك » . . هل وعيتم الدرس — يامن عصيتم الرسول ﷺ وعرضتم أنفسكم للشرك بالله — حين قدمتم النذور والقرايين لغير الله تعالى ؟ !

هل علمتم الآن — يامن استندتم ، وبعتم أثاث بيوتكم ورهنتم دوركم كى تقدموا النذور والقرايين للموتى حتى تروج التجارة ، ويشفى المريض ، وينجح الطالب ، ويعود الغائب (١) ! هل علمتم الى أين تذهب أموالكم ؟ !

هل عرفتم لماذا يرفع بعض الناس شعار : « قطع الورايد »
ولا قطع العوايد » ؟ ١٤

وأخيرا .. هل أدركتم الآن — يا عباد القبور — معني قول
الله تعالى : « هل تتبكم بالأخسرين أعمالا • الذين ضل سعيهم في
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٩٩) .

فاللهم ربنا : أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وارنا الباطل باطلا
وارزقنا اجتنابه ، واهد قومنا ياربنا فانهم لا يعلمون ..

● ومن حلف بغير الله ، فقد أشرك :

الحلف بغير الله تعالى .. كأن يقسم بالنبى ﷺ ، أو بالكعبة
الشريفة ، أو بولي من الأولياء ، أو بكبير من الكبراء .. أو يقسم
بالوطن ، أو بالأباء والأجداد ، أو بغير ذلك من المخلوقات فكل ذلك من
الشرك .. وفي الحديث : « ومن حلف بغير الله فقد كفر » ..
وفي رواية : « فقد أشرك » (١٠٠) .

وذلك لأن في القسم تعظيماً للمقسم به .. والذي ينبغي أن
يخص بالتعظيم والتقديس هو الله وحده .. لهذا جاء النهي عن الحلف
بغيره تعالى .. فقال ﷺ : « لا تحلفوا بأبائكم » .. وقال : « من كان
حالفاً فليحلف بالله ، أو ليذر » ..

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذبا أحب
الى من أن أحلف بغيره صادقا » .

« ومن المعلوم في الدين : أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر ..
لكن الشرك — وان كان شركا أصغر — أكبر من كل الكبائر في نظر
فقهاء الصحابة رضى الله عنهم » (١٠١) .

(٩٩) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

(١٠٠) رواه الترمذى وحسنه .

(١٠١) حقيقة التوحيد ، مرجع سابق ص ٤٦

ويعاقب الدكتور يوسف القرضاوى على ذلك بقوله : « فالحالف بغير الله لا وفاء له ولا كفارة .. لأن هذا شرك ، والشرك لا حرمة له .. وانما عليه أن يستغفر الله تعالى .. وأن يقول ما قاله الرسول ﷺ : « من حلف وقال فى حلفه : واللوات والعزى ، فليقل : لا اله الا الله » (١٠٢) .. فبين هذا الحديث أن كفارة الشرك تجديد التوحيد ، لا الاطعام ولا الصيام » (١٠٤) .

* * *

● خلاصة المسألة .. بين المعارضين والمجيزين :

يطلق الصوفيون على أهل السنة : علماء الظاهر ، أو أهل الشريعة .. لأنهم يتمسكون بنصوص الكتب والسنة ولا يحددونها عنها .. ويطلقون على أنفسهم : أهل الحقيقة ، لأنهم لا يقفون أمام النصوص ، وانما يصلون الى المعانى الكامنة وراءها ، وذلك بالقاء لله تعالى فى قلوبهم أسرار هذه النصوص .. فهم - على هذا - علماء الباطن ..

ويختلف « علماء الظاهر » - أهل السنة - مع « علماء الباطن » - الصوفية - فى مسألة الأضرحة وما يدور حولها اختلافا كبيرا ، ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا : ان خلافهم حول هذه المسألة ينبع من أعماق الجذور ..

● فبينما يرى أهل السنة أن الأضرحة ليست الا مظهرا من مظاهر الوثنية - ولا يجتمع فى دين الاسلام قبر ومسجد أبدا - كما يقول الفقهاء من السلف الصالح - بل ويذهبون الى أنه اذا بنى المسجد أولا يهدم القبر ، أما اذا كان القبر أولا فيهدم المسجد .. لأن الاسلام سوى بين الجميع - من آل البيت وغيرهم لقول الرسول ﷺ لأقرب أقربائه : « اعملوا فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا » - وهذا يستوجب

عدم تمييز آل البيت أو غيرهم ببناء الأضرحة على قبورهم .. أو رفع هذه القبور كما ترفع الأضرحة والمقامات ..

كما لا يصح في نظر أهل السنة نقل الأضرحة إلى المساجد ، فالمساجد دور للعبادة ، وحلقات للعلم وليست مدافن للموتى ..

والاسلام بهذا يوقف زحف الوثنية عليه كما زحفت على الأديان السابقة فحولت توحيدها إلى شرك .. لأن أصل فكرة عبادة الأوثان - كما يقول أهل السنة - أنها كانت قبوراً تبني لتذكر بالصالحين ، ثم نسي الجيل الأول هذا الأمر ، وجاء الجيل الثاني فظن أن القبور قد بنيت في المساجد لتعبد ، فعبدها .. واقتصر الجيل الثالث على اتخاذ صورة أو تمثال يعبدونه في دورهم دون الذهاب إلى دور العبادة .. ولهذا فإن الاسلام حين يمنع ارتباط القبر أو الضريح بالمسجد ، فإنما يريد بذلك أن ينهي كل مظاهر الوثنية ويقضى عليها .. ويحتج - أهل السنة - بأحاديث الرسول ﷺ التي تنهى عن اتخاذ القبور مساجد ..

ولكن الصوفية : يجيزون إقامة المساجد فوق القبور .. محتجين لذلك بأنه عندما مات الرسول ﷺ فإنه دفن بحجرة عائشة - رضي الله عنها - وكانت رضي الله عنها تؤدي الصلوات الخمس في حجرتها ، وكان بها قبر الرسول ﷺ .. وصاحبيه : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وظلت عائشة رضي الله عنها تقيم صلواتها في نفس الحجرة دون أن تتخذ من مكان القبر قبلة أو تصلي عليه .. وعلى هذا فهم يرون أن الصلاة بمكان به قبر صحيحة ، قياساً على صحة صلاتها - رضي الله عنها - بحجرتها وبها قبور الرسول ﷺ وصاحبيه رضوان الله عليهما !!

● ويرى أهل السنة عدم جواز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة التي ذكرها الرسول ﷺ في حديثه ، وهي : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، والمسجد النبوي الشريف ..

وشد الرحال - كما يراه أهل السنة - هو العزم على السفر وحزم

الحقائب والتوجه بالارادة الكاملة الى أحد المساجد الثلاثة التي وضحتها الرسول ﷺ في قوله : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » ..

فالنص في هذا الحديث واضح : لا يحتاج الى تأويل أو اضافة ..
فانهى اذن عن شد الرحال لغير هذه المساجد هو نهى للتحريم ..

وهذا - كما يقولون - يختلف عن شد الرحال من أجل العلم اذا أراد المسلم أن يتعلم على يد أحد العلماء ، أو يسمع لأحد الخطباء ، فهذا بعيد عن أمر المساجد .. وتعلم العلم والسعى اليه مطلوب ، وقد كان الصحابة والتابعون يسافرون بالأيام والشهور لأحد الصحابة أو التابعين لمعرفة حديث عن الرسول ﷺ ..

ولكن الصوفية ، يرون أن الناس لم يفهموا الحديث على حقيقته ..
اذ معنى الحديث - في نظرهم - أن المساجد كلها متساوية في الفضل والثواب .. فاذا صلى المسلم صلاة العصر - مثلا - في مسجد معين ، فثوابه فيه مثل ثوابه في أى مسجد آخر .. الا المساجد الثلاثة المذكورة في الحديث ، فان الصلاة في المسجد الحرام يتضاعف ثوابها الى مائة ألف ، والصلاة في المسجد النبوي يتضاعف ثوابها ألف مرة ، وفي المسجد الأقصى يتضاعف خمسمائة مرة .. أما سائر المساجد فلا تضعيف فيها ، وكلها متساوية في الفضل !!

ويرون أن شد الرحال لغير هذه المساجد الثلاثة .. لا لطلب مزيد ثواب في الصلاة .. فهو عمل مباح لا شيء فيه .. فالتناس يشدون الرحال لطلب العلم ، ويشدون الرحال للتجارة ، ويشدون الرحال لزيارة المساجد الموجودة بها أضرحة !!

وانما تشد الرحال الى الأضرحة ، لا للصلاة في مساجدها ، لأن الصلاة فيها تساوى الصلاة في مسجد الحى أو القرية التي يسكنونها ..
وانما يأتي مزيد من الثواب - في نظرهم - في الصلاة في هذه المساجد ، لا من ناحية كونها مساجد ، بل من ناحية زيادة عدد المصلين فيها .. فكلما زاد عدد المصلين في الجماعة كلما كان ثواب المصلين أكثر ..

كما أن الناس قد يحصلون على مزيد من الثواب لأن هذه المساجد قد عمرت بأنفاس الصالحين عبر القرون .. لكنها - كما يقولون - من حيث المسجدية تتساوى مع أى مسجد الا المساجد الثلاثة المذكورة فى الحديث !!

● ويرى أهل السنة : أن زيارة النساء للقبور لا تصح اطلاقا .. لقول الرسول ﷺ : « لعن الله زوارات القبور ... » فلعنة الله تلاحق زائرة القبر ، وما أجازه الرسول ﷺ من زيارة القبور إنما كان للرجال فقط ..

فإذا كان الرسول ﷺ قد نهى النساء عن الذهاب الى المقابر التى هى أصلا للمسلمين جميعا ومن الجائز أن يزورها .. فالأولى منع ذهابهن الى ما يخالف الشرع وهو الأضرحة ، وما يترتب على هذه الزيارة من مفاسد ..

ولكن الصوفية لا يرون فى ذلك بأسا .. ويرون فى زيارة النساء للأضرحة أمرا مشروعا ، بل ومسنونا بالعظة والاعتبار ، ولقراءة القرآن ، واهداء ثواب القراءة للموتى ، ولكى يأتنس الموتى كذلك بهن ، فان الموتى يأتنسون بزيارة الأحياء لهم !!

ويقولون : بأن من زار قبر ميت - أيا كان هذا الميت - فان الميت يعلم بزيارة من زاره ويراه ويسمع حديثه .. ولو زار المسلم - أو المسلمة - قبر الميت وقرأ له ما تيسر من القرآن ، وأهدى ثواب قراءته للميت ، فان الميت يسمعه وهو يقرأ ويأنس به ويسعد بزيارته .. كما يسعد كذلك بالقرآن الذى وهب ثواب قراءته لروحه .. فالمتى جميعا فى قبورهم أحياء - المسلمون منهم والكفار ، والطائعون والعصاة - يرون من يزورهم ويستمعون لما يقرأونه .. لأن القبر اما روضة من رياض الجنة ، واما حفرة من حفر النار ، والنعيم أو العذاب لا يكون الا مع الحياة !!

أما ما يقترن بزيارة الأولياء والصالحين من أشياء لا تليق بالمسلم وتخرج عن الآداب الاسلامية ، فعلى الناس منعها .. فالمرأة التى تدخل

لزياره هذه القبور وهى سافرة ، يجب منعها من الدخول الى هذه الأماكن ، كذلك يجب منع النساء اللاتى يرفعن أصواتهن بالزغاريد فيها !!

● ويرى أهل السنة : أنه لا يجوز الطواف حول الأضرحة ، أو تقبيلها ، أو تقبيل الأعتاب وما يحدث عادة من العامة عند زيارة الأوتياء والصالحين .. فالطواف لا يجوز الا حول الكعبة .. كما أن التقبيل لا يجوز الا للنجر الأسود ..

ويقولون : ان كل دوران يتم حول شىء ما ، يسمى طوافا .. والطواف حول الكعبة يحسب من ابتداء الدوران من نقطة معينة الى أن يعود الطائف الى هذه النقطة .. فهذا الدوران يسمى طوافا .. والقرآن الكريم يقصر الطواف عنى الكعبة بقوله تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق » (١٠٤) .. ومعنى هذا : أنه لا يجوز مطلقا الطواف بغير الكعبة كالأضرحة وغيرها .. لأن الطواف عبادة ، ولا بد للعبادة أن تكون وفق ما جاء به الشرع ..

ولكن الصوفية يرون أن الطواف حول الأضرحة ليس طوافا .. وانما هو تنظيم لحركة المرور .. اذ أن الحركة الصحيحة - فى المكان المستدير - هى الدوران حوله ، والا تصادم انفس لو كان المرور فى اتجاه واحد .. وعلى هذا لا يرون فى الدوران حول الأضرحة طوافا ، ولكنه تنظيم لحركة المرور !!

ويرون أن تقبيل الأضرحة والأعتاب .. ليس الا تعبيراً عن حب ، بالغ أصحابه فى التعبير عنه .. وعلى هذا فهو - فى نظرهم - ليس الا لوناً من ألوان فعل الأشياء التى لا تليق ولم يرد بها شرع ، ولكنها لا تكفر صاحبها !!

● ويرى أهل السنة : أنه لا يجوز الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ، ولا بمولد غيره من آل البيت أو الأولياء .. لأن هذا مما أحدثه الناس فى الدين ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة لقول الرسول ﷺ :

« اياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »
ولقوله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .
ولو كان الاحتفال بالموالد من الدين لفعله الرسول ﷺ أو الصحابة
أو السلف الصالح رضوان الله عليهم ..
وقد صرح جماعة من أهل السنة بانكار الموالد وحذروا منها ..
وخالفهم في ذلك بعض المتأخرين وقالوا : انها جائزة اذا لم تشتمل على
منكر ، وظنوا انها من البدع الحسنة .. حتى آل الأمر الى ما نراه
اليوم .. فمع كون هذه الاحتفالات بدعة ، فان أغلبها لا يخلو من
المنكرات كاختلاط النساء بالرجال ، والأغاني والمعازف والمخدرات ..
كما أنه يقع فيها ما هو أعظم من ذلك : كمناشدة الرسول ﷺ
والأولياء والاستغاثة بهم وطلبهم المدد ، واعتقاد أن الولي يعلم ما في
الغيب .. وغير ذلك من الشرك الأكبر ..
ولهذا يرى أهل السنة أن الاحتفال بالموالد ليس من الاسلام في
شيء ، وأنه لا ينبغي للعاقل أن يغتر بكثرة من يفعله من الناس المبتدعين
في سائر الأقطار .. لأن هذه الموالد وما يحدث فيها من منكرات
مخالفة صريحة لشرع الله ..
ولكن الصوفية يرون أن اقامة الموالد ليس الا احتفالات لاهياء
ذكرى الصالحين .. وأن الأصل فيها اجتماع الناس لتذكر حياة أولئكم
الصالحين ، ولأخذ العظات والعبر من حياتهم .. حيث تقرأ فيها قصصهم
فيتأثر الناس بها ، ويأخذون الأسوة من سيرتهم .. ولهذا فهي -
في نظرهم - من الأعمال المشروعة التي يثاب الناس عليها !!
ولا ينكر الصوفية ما يحدث في هذه الموالد من البدع والخرافات
التي لا تليق بالمسلمين .. ويرون أنه يجب تطهيرها مما علق بها من
الخرافات والبدع التي شوهدت الكثير من جمالها .. وأن يدعم ما يكون
بها من صالح الأعمال كالعكوف على تلاوة القرآن الكريم ، والاجتماع
على ذكر الله ، واطعام الطعام .. وتذكر وقراءة سير أصحابها حتى
تصبح مواسماً للطاعة ..

● ويرى أهل السنة أن النذور قربة إلى الله تعالى وعبادة له ..
ولا بد أن يكون الله تعالى هو المقصود بهذه النذور لا غيره .. وأن أى
نذر أو قربة تتوجه لغير الله فهو شرك ، ومن نذر لغير الله فقد أشرك ..
ويرون أن النذر لو كان لله تعالى ، لأنفقه الناذر فى أى مكان
دون الارتباط بصندوق النذور .. إذ لم يعرف فى تاريخ السلف
الصالح أنهم اتخذوا الأضرحة ، أو صناديق النذور الى جوارها ..
لأن هذه المظاهر ليست اسلامية بل ومما ينهى عنه الشرع ..

ثم كيف يوضع المال فى صندوق للنذور لا يعرف الناس مصارفه
.. فى حين أن أمام الناذر وحوله العديد من الفقراء المحتاجين الى
هذا المال فى القرى والأحياء من المدن ؟ !

هذا .. على فرض أن الناذر ينوى النذر لله وهو يضع نذره فى
صندوق الولى .. ولكن الأغلب ما يقوله الناس من أن هذا النذر
للولى الثقلانى .. وهذا مظهر من مظاهر الشرك ينبغى أن ينتهى
عنه المسلمون ..

كما يرى أهل السنة : أن رفع الدعاء لغير الله تعالى ، والاستغاثة
بصاحب الضريح ، والنذر للأولياء ، والاستغاثة بالمقبورين والحلف بهم ،
واسباغ أوصاف الله تعالى عليهم — كقول القائل : « يا امام ياللى
لا بتغفل ولا بتنام » (!!) — وغير ذلك من الأمور التى يفعلها العامة
حول الأضرحة .. كل ذلك من البدع المنكرة التى لا يجوز السكوت عليها
أو الاعضاء من شأنها ..

فالدعاء عبادة ، والنذر عبادة ، والاستغاثة لا تجوز بغير الله ،
فهو تعالى وحده غياث المستغيثين ، والاستغاثة لا يجوز أن تكون بغير
الله ، فهو وحده المعين .. والحلف لا يجوز بغير الله ، فهو وحده
المعبود ولا رب سواه ..

ولكن الصوفية يرون جواز كل هذه الأمور .. بحجة أن عقيدة
الناس سليمة ، وأنهم لا يقصدون فى أفعالهم غير الله تعالى .. ولكنهم

عندما يذكرون أسماء الأولياء والصالحين عند قيامهم بهذه الأمور ، لا يفعلون ذلك الا من قبيل التبرك بذكرهم ، واتخاذهم وسائل وقربات الى الله تعالى !!

هذه هي أهم مواطن الخلاف بين أهل السنة : علماء الظاهر (أهل الشريعة) ، وبين الصوفية : علماء الباطن (أهل الحقيقة) فى مسألة الأضرحة وما يدور حولها .. أوردناها بعد تلخيصها وذكرنا الحجج التى يخرج بها كلا الفريقين ، حتى لا تنتهم بالتحيز ضد الصوفية .

● فتوى صريحة فى مسألة الأضرحة :

نشرت مجلة الاذاعة .. فى عددها الصادر فى يوم السبت السابع من سبتمبر عام ١٩٥٧ فتوى لفضيلة الشيخ حسن مأمون مفتى الديار المصرية فى « حكم الشرع فى زيارة أضرحة الأولياء والطواف بالمقصورة وتقبيلها والتوسل بالأولياء » ..

قال - جزاه الله عن الاسلام خيرا - :

« أود أن أذكر أولا أن أصل الدعوة الاسلامية يقوم على التوحيد .. والاسلام يحارب جاهدا كل ما يقرب الانسان من مزالق الشرك بالله ..

ولا شك أن التوسل بالأضرحة والموتى أحد هذه المزالق .. وهى رواسب جاهلية ..

فلو نظرنا ما قاله المشركون عندما نعى عليهم الرسول ﷺ عبادتهم للأصنام قالوا له : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » (١٠٥) .. فهى نفس الحجة التى يسوقها اليوم الداعون للتوسل بالأولياء لقضاء حاجة عند الله أو التقرب منه ..

ومن مظاهر هذه الزيارات : أفعال تتنافى كلية مع عبادات اسلامية ثابتة ..

فالتطواف في الاسلام ، لم يشرع الا حول الكعبة الشريفة ..
وكل تطواف حول أى مكان آخر حرام شرعا ..

والتقبيل في الاسلام ، لم يسن الا للحجر الأسود .. قال فيه
عمر - رضى الله عنه - وهو يقبله : « والله لولا أنى رأيت رسول الله
يقبلك ما فعلت » ..

فتقبيل الأعتاب ، أو نحاس الضريح ، أو أى مكان به ..
حرام قطعاً ..

وتأتى بعد ذلك ، مسألة الشفاعة .. وهذه في الآخرة غيرها
في الدنيا ، فالشفاعة ارتبطت في أذهاننا بما يحدث في هذه الحياة من
توسط انسان لآخر أخطأ عند رئيسه ومن بيده أمره ، يطلب اليه أن
يعفّر له هذا الخطأ ، وان كان هذا المخطيء لا يستحق العفو
والمغفرة ..

غير أن الله سبحانه وتعالى ، قد حدد طريق الشفاعة في الآخرة ..
فهذه الشفاعة لن تكون الا لمن يرتضى الله لهم أن يشفعوا ، ولأشخاص
يستحقون هذه الشفاعة .. وهؤلاء أيضا يحدددهم الله ..
اذن .. فكل هذا متعلق بأذن الله وحكمه ..

فاذا نحن سبقنا هذا الحكم بدنب الشفاعة من أى كان .. فان هذا
عبث لأننا لا نستطيع أن نعرف من سيأذن الله لهم بالشفاعة ومن
يشفع لهم ..

وعلى ذلك .. يتضح أن كل زيارة للأضرحة ، والتطواف حولها ،
وتقبيل المقصورة والأعتاب ، والتوسل بالأولياء وطلب الشفاعة منهم ..
كل هذا حرام قطعاً ، ومناف للشريعة ، وفيه اشراك بالله ..

وعلى العلماء : أن ينظموا حملة جادة لتبيان هذه الحقائق ،
فان الكثير من العامة - بل ومن الخاصة - ممن لم تتح لهم المعرفة
الاسلامية الصحيحة يقعون فريسة هذه الرواسب الجاهلية التي تتنافى
مع الاسلام .. واذا أخذ الناس بالرفق في هذا الأمر فلا بد أنهم

سوف يستجيبون الدعوة ، لأن الجميع حريصون — ولا شك — على التعرف على حقائق دينهم » ا ه •

هذه فتوى صريحة لفضية الشيخ حسن مأمون مفتى الديار المصرية الأسبق •• والآية التي استشهد بها فضيلته نزلت فى افراد الله وحده بالعبادة والدعاء •• وهى واضحة جلية فى النهى عن اتخاذ الوسطاء والشفعاء من دون الله •• يقول تعالى : «ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار» (١٠٦) •

فالعبادة والطاعة لا تكون الا لله وحده •• خالصة له ولا شريك لأحد معه فيها •• أما الحجة التى يسوقها دائما الذين يتجهون بالعبادة والطاعة لغيره تعالى ، فهى قولهم : ما نعبد هؤلاء الأولياء الا ليقربونا الى الله منزلة ، ويشفعوا لنا عنده فى حاجتنا •• فالله — تعالى — سوف يفصل بين هؤلاء الناس — الذين يتخذون الأولياء من دونه — فيما يختلفون فيه ، بأن يصليهم جميعا نار جهنم •• الا من أخلص الدين له وحده ، فهو تعالى لا يرشد الى الحق من هو مفتر على الله ، يقول عليه الباطل ، كافر بنعمته ، جاحد لربوبيته ••

ثم يقول جل شأنه : « ان تكفروا فان الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وان تشكروا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، انه عليم بذات الصدور •• وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيياً اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار •• أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعطون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولوا الألباب» (١٠٧) •

فهو تعالى يقول لعباده : ان تكفروا أيها الناس جميعا ، فان الله

غنى عن ايمانكم وعبادتكم ، ولا يرضى لعباده أن يكفروا به .. وان تؤمنوا بربكم وتطيعوه يرضى شكركم له بذلك ، ولا تؤاخذ نفس بذنوب غيرها ، ثم الى ربكم مصيركم بعد وفاتكم ، فيخبركم بما كنتم تعملون ، فيجازيكم على ذلك : المحسن منكم باحسانه ، والمسيء بما يستحقه .. فهو تعالى لا يخفى عليه شيء ، فانتقوه في سر أموركم وعلانياتها ..

وشأن الانسان — دائما — أنه اذا مسه بلاء فى جسده أو ماله — فكان فى جهد وضيق — أن يستغيث بربه الذى خلقه ويرغب اليه فى كشف ما نزل به ، تائباً اليه مما كان عليه ، راجعاً الى طاعته .. ثم اذا كشف عنه ضره ، فأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء .. ترك دعاءه الذى كان فى حال الضر .. وجعل لله تعالى أمثالا وأشباها ، وأطاع الشيطان فى عبادة الأنداد والشفعاء .. ليزيل من أراد أن يوحد الله عن توحيده ، والدخول فى عبادته والايان به وحده ..

ثم يقول تعالى متوعدا أولئكم الذين يتخذون من دون الله الأولياء والشفعاء : تمتعوا بكفركم بالله قليلا ، الى أن تستوفى آجالكم وتأتىكم منيتكم ، فانكم من أهل النار الماكثين فيها أبدا .. فمهما تمتعتم بهذه الدنيا الفانية ، وتلذذتم بنعيمها الزائل ، فمصيركم الى نار جهنم .. ويعتقد تعالى المقارنة بين المؤمنين الذين يقضون ليلهم ، متعبدين لربهم ، ساجدين وقائمين ، وبين الذين يشركون به تعالى ويتخذون له الأنداد والشفعاء .. فيقول : هل الذى جعل لله أندادا وشفعاء ، كهذا القائم لله تعالى ، مطيعا له ساعات الليل ، ساجدا أحيانا وأحيانا قائما ، يحذر عذاب الله فى الآخرة ، ويرجو أن يرحمه تعالى فيدخله جنته ؟ ..

هل يستوى الذين يعلمون ما لهم فى طاعتهم من الثواب ، وما عليهم فى معصيتهم من العقاب مع الذين لا يعلمون ذلك ، فهم يخبطون فى عشواء ؟ !

ما هذان بمتساويين ، وانما يعتبر بحجج الله ويتدبرها ، أهل العقول والحجى ، لا أهل الجهل ونقص العقول ..